للائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 91

01 كانون الثاني 2024

الرواية الفلسطينية تنتصر/
نحو حركة شعبية عربية منظمة

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــ 91 ـــدد

01 كانون الثاني 2024

محتويات العدد 91 من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

محور انتصار الرواية الفلسطينية في الصراع

.جيل طوفان الأقصى/ نسرين عصام الصغير.....01

.استهداف الصحفيين في غزة، وهزيمة أخرى للعدو/ كريمة الروبي.....04

.الرواية الفلسطينية إلى الواجهة في دحض الرواية الصهيونية/ ميادة إبراهيم رزوق.....07

محور نحو حركة شعبية عربية منظمة

.نحو حركة عربية/ بشار شخاترة.....22

.أزمة الحوار والعمل المشترك / ناجي علوش (1992).....26

.نحو تصور عملي لتشكيل حركة شعبية عربية منظمة/ إبراهيم علوش.....31

أبواب عامة

.مقاربة تاريخية لتجليات الصهيونية في الهوية السياسية الأمريكية/ إبراهيم حرشاوي.....38

.منبر حر: سؤال الهوية العربية السورية، نحو جسر حواري مع الخط القومي

السوري/ يزيد جرجوس.....43

.الصفحة الثقافية: التطبيع من ثقب إبرة في رواية «ناغوغي الصغير»

/ طالب جميل.....51

.قصيدة العدد: في أذان العصر/ يوسف الخطيب.....55

.رسم العدد: البأس اليمني.....59

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

جيل طوفان الأقصى

نسرين عصام الصغير

بعد مرور عقود على الأجيال الشبابية لم تعايش فيها غير التكنولوجيا وزمن الانبطاح والتطبيع مع الكيان الصهيوني، أصبنا باليأس لوهلة لكون القضية الفلسطينية تراجعت أهميتها في سلم اهتمامات أبنائنا، حيث أصبحت مقاطعة المنتجات الصهيونية والداعمة للعدو الصهيوني شيئاً غريباً ومستهجناً ونوعاً من أنواع «التخلف»، إذ إن أولوياتهم أصبحت تختلف عن أولوياتنا واهتماماتهم تختلف عن اهتماماتنا لدرجة شعور بعض الأهالي بالغربة عن أولادهم، حيث أصبحنا ننعت أبناءنا بجيل «الببجي» والسوشيال ميديا، حيث بات من النادر أن نشاهد فتاةً تمشي من دون تشغيل خاصية اللايف على صفحاتها، والتفاهة كانت عنوانهم لدرجة أنني شعرت أن المشكلة مشكلة جيل، لا بل وأكثر من ذلك شعرنا بإخفاقنا في تربيتهم حيث لم تعد فلسطين أو القضايا العربية جزءاً من أولوياتهم.

عمل الغرب على تشكيل عقول أبنائنا، من دون أن نشعر، كل يوم ببرنامج جديد يحاكي احتياجاتهم كشباب ومراهقين أكثر فأكثر، من فيسبوك للإنستغرام وإلى التيكتوك، غير

الألعاب التي كانت تشغل كل وقتهم وتعد انتهاكاً لحرمة البيوت بالخاصيات المضافة إليها من مايك وسماعة حيث أن جميع من في اللعبة يسمع ما يدور في بيت كل مشارك فيها، فلم تعد خصوصية البيوت في قائمة اهتمام الجيل الصاعد، والأهم أنه لو ظهر معه لاعب صهيوني في البرنامج الجديد يضع علم الكيان فإنه يقوم باللعب معه بحجة أنه سيقتله، ومهما قدمنا من شرح أنه تطبيع فنحن نتحدث في وادٍ وهو يعيش في وادٍ آخر مختلف عنا تماماً، لأنه لم يعد يرى الأمور بمنظورنا ونحن المختلفون عنهم، لا بل والمتخلفون عنهم من وجهة نظرهم.

جيلٌ كاملٌ لم يشهد إلا اتفاقيات التطبيع والتنازلات، وأصبح أبناؤنا يرون وجود الصهاينة في الأراضي العربية طبيعياً، سواء في الإمارات، أو قطر خلال المونديال، أو في المناطق السياحية في الأردن والمغرب والسعودية، لأن الطبيعي لهم هو هذا المشهد الذي فرضته عليهم الأنظمة العربية و«الرأي العام العالمي»، لأن تقبل «الآخر»، أي المحتل الغاصب، هو التحضر والتطور و«الإنسانية»، وهو عنوان حياتهم.

لكنْ، وبعد كل المجهود الذي بذله الغرب مع التطور التكنولوجي الذي يمسك بمقاليده في وسائل التواصل، وبعد زراعة الكيان الصهيوني اصطناعياً في عقول أبنائنا، وتقديم كل ما يحتاجه الطفل والشاب من خدمات تكنولوجية تسيطر عليه فعلياً، جاء طوفان الأقصى ليجرف كل سنوات العمل التي بذلها الغرب لإنتاج جيلٍ تافهٍ مهمشٍ أبعد ما يكون عن عروبته وقوميته، أي قام طوفان الأقصى في لحظته التاريخية بإعادة البوصلة، التي لم نعد نقدر على تدويرها، تجاه قضايانا الأساسية، فأصبحت التكنولوجيا التي وفرها الغرب إحدى أدوات المعركة داخل فلسطين وخارجها، فمن يعيش داخل فلسطين ينقل الصورة من أرض المعركة، ومن يعيش خارج فلسطين يتلقى الصورة ويحللها ويقوم بواجبه البسيط في نشرها.

فبعد طوفان الأقصى عادت القضايا المنسية إلى الواجهة وعاد العدو الصهيوني إلى مكانه الحقيقي لدى أبنائنا، فهو القاتل والمغتصب والسارق وقاطع الطرق، وأصبح كلٌ يقوم بدوره، فهناك من يكشف حقائق الشركات المقاطعة والداعمة للكيان الصهيوني، وهناك من يتظاهر ليطالب بإسقاط اتفاقيات الذل والعار، وهناك من يبتكر أساليب حديثةً مستخدماً التكنولوجيا التي نشرها الغرب لخدمة مصالحه وأجندته، فأصبحت منبراً لإيصال الصورة الحقيقية إلى الغرب والشرق والجنوب عالمياً، ولا أتحدث هنا عن الغرب السياسي، بل غرب

المواطنين المغيبين عن الواقع الذين أصبحت تصلهم المادة التي يقدمها أبناؤنا من فلسطين ومن خارجها، فانقلب السحر على الساحر وأصبحت التكنولوجيا أداة لنا لا علينا، وفعلاً كان أثرها أكبر من أي أثر آخر.

وبعد ما يقارب ثلاثة شهور نرى اليوم الشارع الغربي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأمريكا اللاتينية ما زال يشارك في اعتصامات وفي حملات مقاطعة المنتجات الصهيونية والداعمة للكيان الصهيوني، وبات أبناؤنا يرون أن ما يقدمونه من محتوى لفلسطين يصل بالطريقة التي أرادوا إيصالها، وهذا الأثر سيبقى عقوداً في عقول أبنائنا ووجدانهم، فالطوفان لم يغرق مستوطنات غلاف غزة فحسب، بل أصبح طوفاناً إعلامياً عربياً على الكيان الصهيوني في فلسطين والوطن العربي والمهاجر.

وبعد عودة القضية الفلسطينية للواجهة، أصبح شبابنا وأطفالنا يعرفون مواضع الأماكن الجغرافية في فلسطين، بأسمائها العربية، وأصبحنا نشاهد انقلاب معايير القدوات والقيادات في منظور أطفالنا وشبابنا، وبتنا نرى الأطفال ينتظرون خطاب أبي عبيدة وأبي حمزة، لا بل أصبح البطل الحقيقي في منظورهم ذلك الشاب الذين لا يرون وجهه ولا يعرفون اسمه عندما يزرع عبوة الشواظ أو ياسين 105 على الآلية الصهيونية. هذا البطل الحقيقي، لم يعد محمد رمضان المطبع «نمبر ون» بل ذلك الشاب الذي يخرج بالرشاش أو السكين في الضفة الغربية ليواجه العدو الصهيوني في اشتباك في جنين أو نابلس أو طوباس.

لم يعد أطفالنا ينتظرون صدور آخر أغنية لمطرب تافه ومطبع بل باتوا ينتظرون آخر فيديو للإعلام العسكري من أرض المعركة في غزة، وبتنا نرى أن أسماء الشهداء التي كادت تمحى من الذاكرة، مثل الأبطال باسل الأعرج وأحمد نصر جرار وإبراهيم النابلسي وعدي التميمي وأشرف نعالوة، عادت للواجهة، فبعد استشهادهم لم يعد يسمع أبناؤنا عنهم إلا بعد طوفان الأقصى، وأصبحت «عرين الأسود» هي الحقيقة وهي الحلم لكل شاب في وطننا. ولو أجرينا اليوم استفتاءً للشباب العربي مضمونه: هل ترغب بالذهاب لفلسطين للقتال والاستشهاد أم ترغب في زيارة الولايات المتحدة الأميركية أو جزر المالديف؟ سنجد، بدون مبالغة، أن أكثر من 95% سيكون جوابهم واحد، وهو الذهاب لفلسطين، حتى لو كان ذلك في مقابل حياته.

الخلاصة أن طوفان الأقصى لم يغير موازين القوى على أرض الواقع فقط، حيث أصبحنا الند

العسكري والإعلامي لهذا العدو، لا بل غيّر جيلاً كاملاً لم نستطع على مر السنين أن نغيّره، وهذا يعني أن النصر آتٍ لا محالة.

كلما نسي أطفالنا المجازر الصهيونية والاحتلال قام الكيان الصهيوني بشرح أدق تفاصيلها لأبنائنا مجدداً، وبالتالي لم نعد بحاجة لشرح أو تفسير سبب عدائنا لهذا الكيان، ولا خطر بأن «يتعودوا» على تلك المجازر، لأن مفهوم «الثأر» أعيد إحياؤه فيهم.

لم تعد القضية الفلسطينية اليوم بوصلة العرب فحسب، بل أصبحت بوصلة شرفاء العالم وأحراره.

شكراً لأبطال فلسطين الذين قاموا بما لم نستطيع القيام به، وها هو العالم يتغير اليوم بسواعد أبناء فلسطين

استهداف الصحفيين في غزة، وهزيمة أخرى للعدو

كريمة الروبي

لا شك في أن العدو الصهيوني يعاني من هزائم متتالية ليس فقط في ميدان المعركة، حيث يتكبد يومياً خسائر فادحة على أيدي رجال المقاومة في غزة ولبنان، والإسناد القوي من المقاومة العراقية، وما تقدمه اليمن لدعم المقاومة ورفع الحصار عن غزة من نموذج يحتذى في النخوة والأصالة، بل أيضاً يتلقى العدو هزائم على المستوى الإعلامي، فبعد أن سيطرت الرواية الصهيونية عن الصراع على مدار

أكثر من 75 عاماً على الإعلام الغربي، مما كان له دورٌ كبيرٌ في تبني الرأي العام العالمي لتلك الرواية، فقد بات يعاني اليوم من خسارة تعاطف الشعوب الغربية معه والذي تحول إلى التعاطف مع غزة بعد أن نقلت الكاميرا إجرامه بحق المدنيين وخاصة الأطفال.

لم تكن المجازر التي يرتكبها العدو بحق أهلنا في غزة هي الأبشع، فقد قام الكيان على المجازر لتفريـغ أرض فلسطين من السكان وإقامة كيانهم اللقيط على تلك الأرض، ولكن نتيجة التقدم الهائل في تكنولوجيا الاتصال، أصبح الجمهور يرى الإبادة الجماعية على الهواء مباشرة يشاهدها الملايين، وأدى انتشار مواقع التواصل الاجتماعي إلى انتشارها، مما أدى إلى خسارة العدو لمعركة الرأي العام، حيث لجأ كثير من الجمهور الغربي للبحث عن قضية الصراع العربي الصهيوني من مصادر أخرى غير التي فرضت عليهم وعرفوا كم كانوا يكذبون عليهم وبدأوا يتبنون الرواية الصحيحة للصراع ويقوم العديد من المؤثرين على مواقع التواصل الاجتماعي بنقل تلك الحقائق إلى متابعيهم.

فشل العدو إعلامياً في معركة طوفان الأقصى، وقد كُشِفت روايته الكاذبة حول ما جرى في السابع من تشرين الأول/أكتوبر وادعاءاته بجرائم وحشية ارتكبتها المقاومة بحق الأطفال والنساء، واتضح بعد ذلك بأن جيش العدو هو من قام باستهداف (المدنيين) وجاءت شهادات مستوطنيهم وأسراهم إيجابية بحق رجال المقاومة.

لذا فإن العدو يرى في الكاميرا والصورة والإعلام بشكل عام سلاحاً مضاداً له حيث يتم تناقل الحقيقة وتفنيد أكاذيبه، فيقوم باستهداف الصحفيين والقنوات الإخبارية. فحتى كتابة هذه السطور استشهد 106 صحفيين واستهدفت قناة فلسطين اليوم والمنار والقدس اليوم وقناة الأقصى التي استشهد في عملية استهدافها 13 من طاقمها، كما تم سحب ترخيص قناة الميادين في الضفة والداخل المحتل. كل ذلك والمؤسسات الدولية ترى وتسمع ولكنها لا تتكلم، عاجزة عن اتخاذ أي موقف ضد الكيان، فهو صنيعة تلك المؤسسات وما وجدت إلا لحمايته.

وكما تقدم المقاومة نموذجاً في التصدي والصمود والانتصار في المعارك الميدانية، فلم تغفل دور المعركة الإعلامية وضرورة إلحاق الهزيمة بالعدو فيها، فكان توثيق العمليات التي تقوم بها المقاومة لقطع الطريق على العدو لفرض روايته، كذلك الصورة التي ظهر بها أسرى العدو لدى المقاومة وما رآه العالم من التعامل معهم بمنتهى التحضر والرقي والإنسانية رغم

المعاملة الوحشية ضد أسرانا لدى العدو، وهو ما أظهر أمام العالم من هو الإرهابي حقاً.

وفي محاولة من العدو الصهيوني لتدارك تلك الهزيمة، لجأ إلى المشاهير لاستقطاب الجمهور مرة أخرى، حيث طلبوا من المخرج الأمريكي الكبير ستيفن سبيلبيرج والمعروف بصهيونيته الشديدة، تسجيل فيديو يخاطب الجمهور ليكسب به تعاطفهم تجاه الكيان ولكنها محاولة فاشلة حيث الكاميرا أصدق من الكلام، والمشاهد المروعة من غزة وصمود أهلها الأسطوري الذي يؤكد أنهم أصحاب الأرض والحق كان أقوى من كل محاولاته البائسة لاستعادة الرأي العام.

في المقابل يختفي أي وجود لمشاهير العرب (مع بعض الاستثناءات البسيطة) ولم نرهم سوى في موسم الرياض يحتفلون ويرقصون في الوقت الذي تمتلئ الشاشات بصور المذابح اليومية لأخوانهم في غزة، باستثناء مؤتمر دعم لفلسطين قامت به نقابة الممثلين في مصر في بداية الأحداث ثم اختفى أي وجود لهم.

أتذكر أثناء أحداث انتفاضة الأقصى عام 2000 كيف انتشرت الأغاني التي تدعم الانتفاضة وشارك الفنانون في فعاليات وأنشطة عديدة رغم أن الأحداث لم تكن ببشاعة الإجرام الذي نشاهده اليوم في غزة... ولكن يبدو أن سيطرة الخليج على إنتاج الأعمال الفنية بالإضافة إلى الحفلات والهدايا السخية قد أدى إلى خوف هؤلاء الفنانين من تأثير مواقفهم الداعمة لفلسطين على موقف الخليج منهم. فقد رأينا جميعاً كيف انهال الهجوم على الفنان المصري محمد سلام لمجرد اعتذاره عن الاشتراك في موسم الرياض احتراماً لدماء الشهداء في غزة لولا وقوف الجماهير معه ودعم موقفه.

إن المعركة الإعلامية لا تقل أهمية عن معارك الميدان، وعلى الجميع الاشتباك فيها، ومحاولة إيصال الرواية الصحيحة للأحداث وللقضية برمتها من ناحية، واستمرار الزخم الجماهيري والشعبي حول القضية والمعركة من ناحية أخرى. لكل منا دور يجب ألا يغفله أو يستصغره مهما بدا ضئيلاً أو ضعيفاً. وللمؤثرين دور أكبر في المعركة، فمن تخلف منهم عن دوره فقد باع أخوانه ولا يستحق دعم الجماهير له.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

الروايــة الفلســطينية إلى الواجهــة في دحــض الروايــة الصهيونيــة

ميادة إبراهيم رزوق

الشائع أن المنتصر يكتب التاريخ، أي أن روايته لما حصل هي التي تسود وتنتشر بين الناس بمن فيهم المهزومون، وهذا ينطبق إلى حد كبير على التاريخ الفلسطيني المعاصر، وتحديداً حرب عام 1948 عندما احتلت فلسطين، حيث تقول الرواية الصهيونية إن سبعة جيوش عربية (مصر وسورية والأردن والعراق ولبنان والسعودية وجيش الإنقاذ) بكامل عتادها وعدّتها قررت الهجوم على «الدولة» الصهيونية الوليدة وحاولت سحقها، وطلبت من الفلسطينيين أن يتركوا منازلهم لكي يمهدوا للعمليات العسكرية، فانقلب «عدوانهم» على الكيان الصهيوني الوليد والضعيف هزيمة نكراء، وهرب أغلب الفلسطينيين من بيوتهم خوفاً وجزعاً واستجابة لطلب قادة الجيوش العربية.

ويهدف الصهاينة من هذه الرواية تبرئة أنفسهم؛ فهم لم يطردوا أحداً من مكانه ولم يرتكبوا إلا بضع مجازر معدودة على اليد الواحدة لإخافة الآخرين، وأيضاً ليقولوا إنهم انتصروا بالرغم من ضعف عددهم وعدتهم، وهذا دليل على التأييد السماوي لهم ولمشروعهم، وهنالك جانب آخر وهو تأكيدهم على دونية العرب الذين مهما تفوقوا بالعدد والعدة فإنهم لن يستفيدوا من ذلك، ولن يهزموا الصهاينة أبداً.

علماً أن الحرب لم تبدأ في هذا التاريـخ، «وهـو تاريـخ انتهاء الانتداب، أي الاحتلال البريطاني ودخول الجيوش العربية»، بل قبله بكثير، وكان تأسيس المستعمرات قد بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أما تحضيرهم للحرب فبدأ في بداية عشرينيات القرن الماضي، بداية الاحتلال البريطاني، وقد بشر جابوتنسكي بالخيار المسلح ضدّ الشعب الفلسطيني في مقالته الشهيرة «الجدار الحديدي نحن والعرب» عام 1923، في الوقت الذي حرصت الجماعات الصهيونية على إدخال السلاح وتخزينه، ولعل إحدى الأحداث التي نبهت الشهيد عزّ الدين القسام للخطر الصهيوني هو انكشاف براميل متفجرات كان الصهاينة يحاولون تهريبها عبر ميناء حيفا، مع مساعدة البريطانيين على توفير الغطاء للتسلح الصهيوني من خلال حرس المستعمرات، بالإضافة إلى إنشاء الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني، الذي حارب في الحرب العالمية الثانية واكتسب المقاتلون فيه الخبرة والتدريب الكافيين لينضموا لاحقاً إلى العصابات الصهيونية في فلسطين.

وبحلول عام 1947 امتلك الصهاينة ترسانة كبيرة من الأسلحة برعاية وتواطؤ بريطانيا، في حين أن الفلسطيني كان ممنوعاً من امتلاك السلاح، وكان يحكم عليه بالإعدام لو ضبطت بحوزته أيّ قطعة سلاح، وقد قمعت بشدة قبل ذلك بأعوام قليلة الثورة الفلسطينية الكبرى (1936-1939) حيث قتل أو أعدم أغلب قادة الثوار، فبدأت الهجمات الصهيونية أواخر عام 1947 بعد قرار التقسيم، عبر هجمات متفرقة كانت تشنها العصابات الصهيونية على القرى والمدن الفلسطينية، وكان يتم الرد عليها، إلا أنه مع مرور الوقت كان يتكشف حجم الخلل الكبير في ميزان التسلح بين الجانبين.

فقد لجأت عصابتا الشتيرن والأرغون الصهيونيتان إلى أسلوب السيارات المفخخة مستهدفة الأسواق العربية والمقرات الحكومية التي تخدم السكان الفلسطينيين، ففجرت مقر الحكومة في يافا في كانون الثاني/ يناير 1948. ومع اقتراب موعد انتهاء الاحتلال البريطاني ارتفعت وتيرة الهجمات، وبدأت عصابة الهاغانا، وهي العصابة الصهيونية الأكبر، والتي أصبحت نواة جيش الاحتلال، بتنفيذ عمليات عسكرية واسعة النطاق لاحتلال المدن والقرى الفلسطينية وطرد سكانها ضمن ما يعرف بـ«الخطة دالت» (Plan Dalet) ابتداءً من آذار/ مارس 1948.

فتم أولاً احتلال طبريا في 1948/04/18، ومن ثم حيفا في 1948/04/22 بعد قصف شديد

للأحياء الفلسطينية فيها، ثم ملاحقتهم بنيران البنادق والمدفعية حتى خرجوا عبر الميناء، واستشهد أكثر من 300 من سكان المدينة أثناء هذه العملية، وحين حاول بعض سكان المدينة اللجوء إلى معسكر للجيش البريطاني قرب الميناء رُفض استقبالهم، تلا ذلك احتلال مدينة يافا، أكبر المدن الفلسطينية وعاصمتها الاقتصادية في 26/4/1948، واليوم أكثر من 51% من اللاجئين الفلسطينيين هم من مدينة يافا، التي طرد سكانها بالطريقة نفسها التي طرد بها سكان حيفا.

واحتلت صفد في 1948/5/11، أما عكا فقد احتلت في1948/05/16 بعد حصار دام حوالي ثلاثة أسابيع، أما القرى التي تعرض أهلها للتهجير خلال هذه الفترة فهي كثيرة ولسنا بصدد حصرها، لكن لا بد من الإشارة إلى أن مجزرة دير ياسين في 1948/04/09، وهي الأشهر، ليست الوحيدة، فقد ارتكبت خلال الحرب أكثر من سبعين مجزرة موثقة، ومنها مجزرة بلدة العباسية، والتي هجر أهلها في مرحلة مبكرة جداً في 1947/12/13، فكانت النتيجة أن أكثر من ثلث الشعب الفلسطيني قد تشرد قبل إعلان قيام (دولة إسرائيل) 14/5/1948، وقبل انتهاء الاحتلال البريطاني وبدء دخول الجيوش العربية 15/5/1948، ويشكل أولئك أكثر من نصف اللاجئين الفلسطينيين اليوم.

فكيف يضعون تاريخ بداية الحرب في 1948/5/15، وقد تشرد قبلها كلّ هذه الأعداد، واحتلت أهم المدن الفلسطينية وعلى رأسها العاصمة الاقتصادية يافا؟ على عكس ما توحيه عبارة سبعة جيوش عجزت عن الانتصار على الجيش الصهيوني، فإن الحقائق والأرقام المتعلقة بحرب عام1948 تكشف لنا عن خلل هائل بميزان التسلح وعدد القوات لصالح الصهاينة، حيث بلغ تعداد قوات الهاغانا الصهيونية أواخر عام 1947 ما بين 40 ألف و50 ألف مقاتل، ارتفعت في بضعة شهور إلى حوالي 100 ألف مقاتل أو أكثر، منهم 20 ألف يهودي أحضروا للقتال من خارج فلسطين، وفي المقابل لم يتجاوز عدد القوات العربية مجتمعة الـ 35 ألف مقاتل على أكثر تقدير، مع الإشارة إلى أنه حتى تاريخ 1948/5/16 لم يقف بمواجهة العصابات الصهيونية سوى بضع مئات من مقاتلي تنظيم الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني، وثلاثة آلاف مقاتل هو تعداد جيش الإنقاذ الذي دخل في بدايات عام 1948، وكانوا قوات غير نظامية وغير مزودين بأي سلاح ثقيل يعتد به، والجيوش العربية كانت أقرب إلى قوات الدرك والحرس الوطني من كونها جيوشاً حقيقية، وأهم جيشين، المصري والعراقي، كانا يقاتلان مئات الكيلومترات بعيداً عن قواعدهما، وكانت

بعض تلك الجيوش تحت الوصاية البريطانية مباشرة، غلوب باشا وقيادته المباشرة للجيش الأردني بين عامي 1939 و1956 نموذجاً.

ففي الوقت الذي كان الصهاينة يملكون الدبابات والطائرات والمدفعية واستخدموها بالقصف والتدمير وعمليات التهجير الواسعة، كانت المدفعية التي تمتلكها الجيوش العربية أقل عدداً وفعالية، ووفق كتاب الدكتور شريف كناعنة «الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير»، وبحث الدكتور وليد الخالدي في أرشيف الإذاعات والبيانات المتوفرة من تلك الفترة فلم يجد بينها أيّ دعوة من القيادة الفلسطينية أو العربية للمغادرة أو الهجرة، بل وجد بيان للعصابات الصهيونية يتهم الجيوش العربية باتخاذ المدنيين الفلسطينيين دروعاً بشرية، ونلاحظ أن الاتهام الصهيوني هنا نفسه يتكرر بشكل دائم، على سبيل المثال في حرب تموز/ يوليو 2006 وحربي غزة الأولى والثانية، وكذلك الأمر في حرب طوفان الأقصى.

وتشير العديد من الوثائق الحكومية البريطانية، والتي كُشف عن الكثير منها، إلى حقيقة أن الفلسطينيين كانوا يتعرضون لهجمات قاتلة من قِبل العصابات الصهيونية في الأشهر الأخيرة للاحتلال البريطاني، ووصف أحد التقارير القادة الفلسطينيين أنهم خذلوا المواطنين بأن طلبوا منهم الصمود في وجه الهجمات الصهيونية ثم لم يستطيعوا فعل شيء لإنقاذهم، وإن كانت مجزرة دير ياسين هي الأشهر كما ذكرنا سابقاً، إذ استشهد فيها أكثر من مئة فلسطيني، إلا أنه تلاها مجازر أكثر وحشية مثل مجزرة الدوايمة في الخليل التي استشهد فيها أكثر من 250 فلسطيني وألقيت جثثهم في آبار المياه، ومجزرة الطنطورة في حيفا والتي تراوح عدد ضحاياها ما بين 130 و300 شهيد.

ولعل الطريقة التي طرد بها أهل اللد والرملة تؤكد بشكل لا يرقى إليه الشك النوايا المبيتة للتطهير والطرد، فبعد استسلام أهالي المدينتين للقوات المهاجمة كان من شروط الاستسلام أن لا يتم طرد السكان، إلا أن القوات الصهيونية قامت بتجميع عدد كبير من الرجال والشيوخ والأطفال من الذكور في مسجد دهمش، وأغلقت عليهم الأبواب وألقت عليهم القنابل من النوافذ ثم دخل الجنود وأجهزوا على الجرحى ومن لم يقتل من الرجال، وقدَّرت بعض الروايات عدد الذين استشهدوا في مسجد دهمش بمئة، فيما ذهبت روايات أخرى إلى 170 شهيداً أو حتى 300 شهيد، وبعد المجزرة نادى الصهاينة بمكبرات الصوت على أهالي المدينة بضرورة أن يغادروها حتى لا يحصل لهم ما حصل لمن كان في مسجد دهمش، إلا أن الاستجابة

كانت قليلة، وفي اليوم التالي أحضر الجنود الصهاينة الحافلات والشاحنات وقاموا بإخراج الناس من بيوتهم بقوة السلاح ومنعوهم من أخذ أيّ شيء من متاعهم الشخصي، وألقوا بهم عند خطّ الجبهة على الطريق المؤدية إلى رام الله، واستمرت عملية التطهير هذه حوالي ثلاثة أيام، وبالتالي كان هناك منهجية شبه ثابتة في عمليات التطهير؛ تبدأ بقصف عنيف بالمدفعية والطيران يضطر قسم من السكان للهروب، ثم مهاجمة القرية أو المدينة وقتال المقاومين والاستيلاء عليها، وبعدها يتم طرد من تبقى من السكان (وفي بعض الحالات كان يتم قتلهم)، وفي أكثر من حالة كان جميع السكان المتبقين في القرية من كبار السن الذين لم يستطيعوا الهرب، لكن ذلك لم يشفع لهم عند القوات المهاجمة.

وبالتالي ما حصل هو عملية تطهير عرقي ممنهجة ومقصودة من أجل إبقاء أغلبية يهودية على الأرض، حيث خاض الفلسطينيون قبل دخول الجيوش العربية حرباً لا يملكون فيها ما يكفي من سلاح للصمود في وجه مجازر منهجية ارتكبها الصهاينة الواحدة تلو الأخرى بدون رادع. فجاءت الهزيمة والاحتلال نتيجة لمجموعة من الأسباب المركبة والمتداخلة منها أخطاء تكيتيكة واستراتيجية ارتكبت سواء في إدارة العمليات أو التصور العام لإدارة الحرب مع العصابات الصهيونية أم ثقة القيادات السياسية بالاستعمار البريطاني، بالإضافة إلى الفارق الكبير في عدد القوات وتسليحها وخبرتها الميدانية والعسكرية، فلم يكن لدى الدول العربية أيّ تصور عن حجم القوة الصهيونية قبل بدء الحرب، ودخلوا فلسطين وهم يظنون أنهم في نزهة

للقضاء على العصابات الصهيونية، وبعد الهزيمة لم يكن لديهم تصور حول الخطوة التالية.

ولكن فيما بعد لم تتوقف المقاومة الفلسطينية وبأشكال مختلفة عن العمل والسعي لتحرير فلسطين وخاصة في غزّة التي تمنّى إسحاق رابين أن «ينام ويستيقظ ويراها وقد غرقت في البحر»، وقد عبّر عن حلمه هذا في اجتماع لمجلس الوزراء الصهيوني، في أعقاب الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987 التي كانت غزّة موطنها الأول، وبعد أن استخدم العدو كل أنواع القتل والقمع والتنكيل لإخمادها.

لقد كان انتصار تشرين الأول/أكتوبر عام 1973 مرحلة مفصلية في تاريخ الصراع العربي-الصهيوني، إلا أنّ ما جرى بعد هذا الانتصار مثّل انحرافاً عن خط المواجهة مع كيان العدو الصهيوني، بل وعُقدت اتفاقات صلح وسلام وتطبيع معه، وتم التخلي عن القضية الفلسطينية من قبل الأنظمة العربية الرجعية الواحد تلو الآخر والنظام الرسمي العربي الذي أصبح التزامه بها شكلياً فقط، وهو ما جعل الشعار الفلسطيني اليائس (يا وحدنا) يبدو شبه واقعي رغم بقاء القضية الفلسطينية قضية الشعب العربي الأولى والمركزية، لكن القيادة المتنفذة في منظمة التحرير كانت قد انساقت بدورها وراء أوهام «الحل السياسي» منذ السبعينيات.

كانت الانتفاضة الأولى، والعامل الديموغرافي والاستبسال الفلسطيني الذي أفشل العنف الصهيوني، وما تلاها، تمثّل ضغطاً واضحاً على الكيان الصهيوني للبحث عن حل، مع عمل دؤوب لآلته الإعلامية مع الإعلام الغربي لتكريس صورة الكيان الصهيوني حتى في ذهن الشعوب الغربية، صاحب كذبه «أرض بلا شعب» و«الواحة الديمقراطية في الشرق الأوسط»، علما أن كيان الاحتلال الصهيوني هو كيان عنصري، يحرم العرب الفلسطينيين في أراضي الـ 1948 من كثير من الحقوق وتولي المناصب، ويكرس نفسه يوماً وراء آخر كدولة «يهودية» عنصرية، وهو في أراضي 1967 (كما في أراضي 1948) كيان احتلال يمارس القمع والعنف والإبادة كلّ يوم، بل وكل ساعة، ويعقبها بحروب كاملة كعدوانه المستمر على غزّة، أو مجزّأة في مخالفة وقحة للقانون الدولي والمعايير «الغربية» لحقوق الإنسان. وهو نظام فصل عنصري «أبارتايد» في فلسطين التاريخية بشقّيها 48-67 والتي يتساوى فيها عدد السكان الفلسطينيين بعدد اليهود رغم كل سياسة جلب المهاجرين.

ومع ذلك فشلت كل السياسات التي اتّبعها كيان الاحتلال الصهيوني للتخلّص من عبء

الديموغرافيا الفلسطينية وتطوّر الصراع، والتي لم يكن من ضمنها الموافقة على دولة فلسطينية مستقلّة والانسحاب الكامل من الأراضي الفلسطينية المحتلّة إلى حدود الرابع من حزيران عام 1697، ورغم «أوسلو» التي أوجدت سلطة فلسطينية «وظيفية لخدمة أمن كيان الاحتلال»، وأعطت نتائج عكسية وصولاً إلى معركة «طوفان الأقصى» من بعد «سيف القدس» بكلّ دلالاته على العدوّ منذ قيام الكيان، المعركة التي كشفت فشل كل سياسات الاحتواء بالقمع والحصار، والاحتواء بتجاهل القضية الفلسطينية وتجاوزها إلى التطبيع، وفشل نموذج «شارون»، «نتنياهو» وقبلهما نموذج «رابين»، «بيريز».

ومع غياب الفوارق المدّعاة بين اليمين واليسار، وفشل «أوسلو» و«الشرق الأوسط الجديد»، بدا أنّ تطور الصراع بما في ذلك العامل الديموغرافي، يتطلّب الانتقال إلى التهجير الفلسطيني مجدداً الذي قام عليه الكيان الصهيوني ، وكان التنفيذ بالعدوان علّى غزّة الذي استدعى استخراج خطة قديمة يماثل تماماً تحقيق أمنية رابين في غرق غزّة في البحر، وكان تنفيذ هذه الخطة يقتضي غطاءً شاملاً غير مسبوق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية الأساسية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا، ورخصةً مفتوحةً للقتل والإبادة والحصار الشامل ومنع الغذاء والدواء عن سكّان غزّة، وتهجيراً قسرياً من خلال الضغط على الدول العربية وفي مقدّمتها مصر، وأصبح كيان الاحتلال الصهيوني أمام تهديد وجودي، يمكن أن يؤدّي إلى زواله، يقتضي التهجير، وتهديد وجودي إن فشل في التهجير.

كما أنّ المؤشرات لخطة التهجير بدأت مع بدء مراكز الدراسات والأبحاث الصهيونية في الفترة ذاتها، أي بداية تسعينيات القرن الماضي، الاهتمام بالدراسات الديموغرافية وتأثيرها على الصراع العربي-الصهيوني والقضية الفلسطينية ومستقبل (إسرائيل)، وهي دراسات سبّبت الرعب في كيان الاحتلال الصهيوني عندما بيّنت أنّ اليهود سيصبحون في العقد الثالث من القرن العشرين أقلية في فلسطين التاريخية وأنّ الفلسطينيين سيصبحون الأغلبية من دون عودة اللاجئين، ناهيك عما يخلقه التحوّل الديمغرافي في أراضي 1967 من عبء متعدّد الجوانب على الاحتلال بما فيها استنزاف صورة (إسرائيل) المزعومة في الغرب، لذلك ترافقت الدراسات الديمغرافية مع خطط ودراسات وتصوّرات للحل من مراكز أبحاث «إسرائيلية» تضمّنت خيارات متعدّدة لمعالجة هذا الخلل، منها استجلاب مزيد من اليهود والمستوطنين إلى فلسطين المحتلة وهو أمر لم يعد بالسهولة القديمة، بل ومع هجرة معاكسة وإن كانت

محدودة. وركّزت الدراسات على تهجير الفلسطينيين والاستيلاء على بيوتهم وأراضيهم. وقد تنبّأ بعض هذه الدراسات بنهاية (إسرائيل) إن لم تتم معالجة التحوّل الديموغرافي لصالح الشعب الفلسطيني والخلل الذي يتسبّب به في معادلة الصراع، وكان بعض الدراسات قد أشار إلى المراحل التي مرّ بها الكيان الصهيوني منذ قيامه، بدءاً من المرحلة الأولى التي كانت فيها (الدولة) المحاطة بجيوش عربية معادية مهدّدة بوجودها رغم تفوّقها بالسلاح التقليدي والحماية الأمريكية، إلى المرحلة التي اختفى فيها هذا التهديد مع السماح لكيان الاحتلال بامتلاك سلاح نووي وعدم السماح للعرب بامتلاكه، وحتى ظهور العامل الديموغرافي الذي حيّد السلاح النووي وأصبحت المقاومة الفلسطينية بأنواعها ومراحل تطوّرها المتسارع أكثر رعباً للمستوطنين من الطيران «الإسرائيلي» الذي تحوّل في كثير من الأحيان إلى مجرّد مسدس لاغتيال القيادات الفلسطينية أو أداة لقتل النساء والأطفال والشيوخ والمدنيين العزّل وإلى استنزاف للصورة المزعومة للكيان الصهيوني لدى الغربي بل الضمير الإنساني كله.

واعتبرت هذه المرحلة منذرة بنهاية كيان الاحتلال، وفي هذه المرحلة ولدت خطط التهجير وحتى خطة غزو العراق التي اعتبرتها الدراسات أقرب الدول إمكانية للحصول على السلاح النووي.

فبدأت فكرة «إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل» تموت مع إدراك الصهاينة أنّ التفوّق الديموغرافي العربي كفيل بهزيمة القوة الصهيونية العاتية، خاصة بعد تجربة الدخول إلى لبنان واحتلال جنوبه واضطرار كيان الاحتلال للانسحاب مهزوماً منه، للانتقال لمقاربة جديدة طرحها شيمون بيريز في كتاب بعنوان «الشرق الأوسط الجديد» عام 1994، تكون فيه «إسرائيل العظمى» التي تهيمن بنفوذها الأمني والاقتصادي على وطن عربي ممزّق من خلال التطبيع، بديلة لـ«إسرائيل الكبرى» تستفيد من الديموغرافيا اقتصاديا، يداً عاملة وسوقاً، بدلاً من مواجهتها مقاومةً وقتالاً.

لكن المشكلة بقيت في القضية الفلسطينية التي لم تفكّر كل الدراسات والمراكز والاتجاهات السياسية والحزبية الصهيونية في مقاربتها من زاوية الحل والانسحاب من الأرض ولو بمفهوم «حل الدولتين» وإقامة الدولة الفلسطينية على كامل الأرض المحتلة عام 1967، والنقطة هنا هي تسليط الضوء على رفض العدو أي شكل من «الحل السياسي» فلسطينياً، مع التأكيد

على عروبة أرض فلسطين من البحر إلى النهر منذ آلاف السنين، وعلى الحق العربي التاريخي فيها، وعلى رفض أي شكل من أشكال «الحلول السياسية» معه.

مع بداية الألفية الثالثة، بدأ العمل على تنفيذ رؤية شيمون بيريز وتطبيق مشروع برنارد لويس .. فجرى احتلال العراق وإسقاط أنظمة عربية وتمزيق الوطن العربي وعقد اتفاقات سلام بنسخة وصيغة جديدة (اتفاقيات أبراهام) والعمل على تحويل القضية الفلسطينية إلى قضية أقلية داخلية، ونجح مخطط إشغال الدول العربية ببعضها وتدمير الجيوش العربية وإشعال الحروب الأهلية بتواطؤ أنظمة ودول إقليمية معادية للعرب، وأوجدت بموجب «أوسلو» سلطة فلسطينية «وظيفية» تتحمّل نيابةً عنها العبء، ولكن كل ذلك لم يحقّق لها ما تريد وبقيت غزّة هي عبء الديمغرافيا الأصعب، لم يعالجه الانسحاب من غزّة وحصارها ولا الحروب المستمرة عليها، وبقي التفكير المستمر بالتهجير حلاً يتم العمل عليه وتحيّن الفرص لتنفيذه.

كشف الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك عن عرض نتنياهو له بتهجير فلسطيني غزّة إلى «سيناء»، وكشف رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس عن إبلاغ الرئيس المصري المعزول الراحل محمد مرسي عن موافقته على تهجير فلسطيني غزّة إلى «سيناء»، ربما كصفقة مع «الأخوان المسلمين» في إطار ترتيبات ما عُرف بـ (الربيع العربي). فأصبحت خطة التهجير إلى «سيناء» مسألة وجود، وإبعاد الفلسطينيين عن غزّة بمثابة تحقيق حلم رابين بإغراق غزّة في البحر، فالمقصود بالإغراق هو إبعاد البشر، وإذا نجح هذا المخطط سيتم تنفيذه في الضفة تجاه الأردن، فالضفة تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى غزّة أخرى مع فارق قداستها لدى الأساطير الصهيونية ومشكلة المستوطنين.

لم يكن ما يحدث في غزّة من عدوان حالياً وحجم العنف والقتل والإبادة الجماعية والتطهير العرقي بإزاحة سكّان غزّة باتجاه جنوبها، وإعلان مساعي التهجير بل وتبنّيه رسمياً من الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين، وكشف النوايا بهذه الطريقة، إلا إدراكاً للخطر الوجودي الذي يواجه كيان الاحتلال الصهيوني.

فالهزيمة التي واجهها الجيش الصهيوني ومخابراته وآلته الحربية في 7 أكتوبر/تشرين الأول بـ معركة «طوفان الأقصى» التي شنتها حركة المقاومة الإسلامية «كتائب عز الدين القسام»

الجناح العسكري لحركة حماس، بقدر ما شكّلت صدمه له ولحلفائه وجرحت كبرياء جيش قال إنه لا يُقهر، إلا أنها إنذار بهزائم أكبر تؤدي إلى نهاية (إسرائيل)، فسعت إلى استغلال الدعم الأمريكي والغربي غير المسبوق الذي أصيب بالصدمة مما جرى لربيبته، فمنحها رخصة قتل لا محدود، ودعماً سياسياً مادياً وعسكرياً وغطاءً لمخالفة القانون الدولي من أجل تنفيذ التهجير حتى لا تكون نهاية (إسرائيل).

ووفق إحدى افتتاحيات «نيويورك تايمز» فقد شبهها كثيرون «بما في ذلك قادة كيان الاحتلال الصهيوني بأحداث 11 سبتمبر» ليس بسبب «حجمها ووحشيتها» كما ترى الصحيفة، بل بسبب أن ما وصفتهم بالإرهابيين قد «سعوا إلى تدمير هدوء الحياة اليومية». وبالتالي فإن هذه الصدمة، والتي دعت القادة في كيان الاحتلال الصهيوني ونظراءهم الأمريكيين لاستدعاء أجواء «الحرب العالمية على الإرهاب» قد حفزت الاصطفاف الأيديولوجي عالمياً وأفرزت سلسلة من الخطابات والسياقات التي وضع بها الصراع الفلسطيني-(الإسرائيلي) مؤخراً، وهو الأمر الذي تطلب تجنيد سلسلة من الأدوات التحليلية النظرية والمفاهيمية لتفكيك منطلقات الخطاب الصهيوني والغربي ومعرفة آليات استخدامه كسلاح في الصراع الدائر.

فوفق نموذج الدعاية فإن فرضية أن وسائل الإعلام الغربية تدعي الليبرالية وتسعى إلى خلق أجواء تبادل معلومات حرة ما هي إلا وهم. فهذه المؤسسات تخدم مصالح الطبقة المهيمنة وتقوم على سلسلة إجراءات تؤدي في النهاية إلى ديمومة مصالح هذه الطبقة ونفي كل من عداها. في هذه الحالة تتحول الأيديولوجيا إلى مؤسسة ومن خلالها تعمل على نشر الدعاية أو ممارسة التخويف. وقد كان واضحاً بعيد أحداث 7 تشرين الأول /أكتوبر كيف فعّلت وسائل الإعلام الغربية، والمؤسسات الرسمية في كيان الاحتلال الصهيوني والدول الغربية الأيديولوجيا وألصقتها بطريقة مثيرة للدهشة على فصائل المقاومة الفلسطينية وتحديداً حماس التي اتهمت بالإرهاب وبالدعشنة.

في هذا السياق، تم استدعاء منطق 11 سبتمبر، وتقسيم العالم إلى «أبناء النور» و«أبناء الظلام» وأن (إسرائيل) تخوض حرب الحضارة ضد «البربرية» الفلسطينية.

بهذه الطريقة تشكلت هذه الأيديولوجيا داخل المؤسسات الإعلامية الرئيسية المملوكة

بشكل كامل أو كبير للطبقة المهيمنة، حيث «أكثر من عشرين شركة تسيطر على كامل وسائل الإعلام التي يتعامل معها معظم المواطنين الأمريكيين». وهو الأمر الذي يمنحهم سلطة كافية لممارسة تأبيد الخطاب المهيمن الذي يخدم مصالهم من جهة، وممارسة الترهيب المضاد الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى تواري أو إضعاف السرديات المعارضة أو التي لا تتفق مع خطهم الأيديولوجي. وقد كان ذلك لافتاً مؤخراً في حق العديد من الشخصيات الاعتبارية الداعمة للفلسطينيين والتي تعرضت للترهيب لطمس أصواتهم وإجبارهم على التراجع أو الاعتذار.

ومن جانب آخر، وبالاعتماد على المنطلقات المنهجية التي استخدمت في أسس الخطاب الذي حاول أن يروج له كيان الاحتلال ضد الفلسطينيين، وهو الخطاب الذي تلقفته وسائل الإعلام الرئيسية وحاولت إبرازه على نطاق واسع، فإنه اعتمد ثلاثة مستويات رئيسية متداخلة:

- وضع الهجمات الفلسطينية في سياق «الحرب على الإرهاب»، كما وضع حركة حماس في قالب تنظيم داعش، وبالتالي كان يجب على «المجتمع الحر» الدخول في تحالف مع كيان الاحتلال الصهيوني لهزيمة حماس كما شُكل سابقاً تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة لهزيمة تنظيم داعش.

- لكيان الاحتلال الحق في الدفاع عن نفسه وهو الأمر الذي يقتضي أمرين: أولهما أن الكيان الصهيوني هو جانب الضحية وله حق الدفاع المشروع، وثانيهما أن وضعه كضحية يسمح له بممارسة ما يشاء من قوة لحماية مواطنيه خصوصاً إذا كان الطرف الآخر يصنف على أنه «وحشي» و«بربري».

- تصوير المعركة بأنها ضد حماس حصرياً أو تحديداً، في حين أن المستهدف فيها هو غزة ككل، وكل مقاومتها شعباً وفصائل، والقضية الفلسطينية ذاتها.

- وأخيراً، سردية استخدام حماس المدنيين دروعاً بشرية. وهي السردية التي بات يستخدمها الكيان الصهيوني على نطاق واسع لتبرير استهدافه المفرط للمدنيين الفلسطينيين، ولتصوير حماس على أنها كيان «وحشي» لا يكترث بالمدنيين

ويقوم باستخدام منشآتهم المدنية للتستر والاختباء وممارسة الأعمال العسكرية.

وهذا لا يعني أن كيان الاحتلال الصهيوني ومن خلفه الدول الغربية والمؤسسات الإعلامية الرئيسية قد نجح في معركة السرديات، بل وصلنا في زمن الأقمار الصناعية ووسائل التواصل الاجتماعي أن القوة بفرض الرواية إعلامياً لا يمكن السيطرة عليها من طرف واحد، فالكيانات المقاومة يمكن أن تمارس أيضاً شكلاً من أشكال القوة وتكون قادرة على فرض روايتها. بالتالي يمكن أن نفهم كيف استطاعت السرديات الداعمة لفلسطين أن تشق طريقها الصعب بقوة لتفرض نفسها كلاعب رئيس في حلبة الرأي العام العالمي، وتحظى بنوع من الحضور والتأثير خصوصاً على الصعيد الشعبي من خلال المظاهرات العارمة التي عمّت العديد من عواصم الدول الغربية مثل واشنطن ولندن وغيرها والتعاطف الذي يبديه الكثير من صناع الرأي والفنانين (مثل الرابر الأمريكي Reveil الذي عرض أسماء الشهداء الأطفال من المدنيين الذين قتلهم كيان الاحتلال في قصفه على غزة) والمؤثرين على منصات التواصل الاجتماعي.

ففي محاولة لتبرير العدوان الهمجي على غزة وتنفيذ إبادة جماعية للسكان، وبعد الانتقادات العالمية للكيان الصهيوني لفشله في تقديم أدلة على تدمير المستشفيات، عمد الاحتلال لتنشيط لجانه الإلكترونية من أجل تقديم روايات أخرى مفبركة تستهدف جلب التعاطف معهم، ومنها استدراج المطبعين العرب، وتجنيدهم خدمة لأهداف الكيان، وقيادة حملات إلكترونية تعمل من خلال وزارة الخارجية والاستخبارات «الإسرائيلية»، للعبث بالرأي العام سواء العربي أو العالمي وتقديم روايات مزيفة تحاول اللعب على وتر المظلومية اليهودية، وذلك من خلال مواجهة ما ينشر على وسائل التواصل الاجتماعي من فضح لجرائم الإبادة الصهيونية بفبركة قصص غير حقيقية مقابلة عن قتل حماس الأطفال وقطع رؤوسهم، واغتصاب النساء، للتأثير على التعاطف مع غزة.

ولأنه «يمكنك أن تخدع كل الناس بعض الوقت، وبعض الناس كل الوقت، لكنك لن تستطيع خداع كل الناس كل الوقت»، كما قال الرئيس الأميركي الأسبق إبراهام لينكولن، لم تصمد أكاذيب الاحتلال الصهيوني كثيراً.

رغم النشاط المكثف للجان الإلكترونية الصهيونية، جاءت حملاتهم متخبطة بسبب

مفاجأة 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023، وفضحت تقارير عبرية وأميركية أكاذيب جيش الاحتلال التي تعمدت هذه اللجان الإلكترونية ترويجها، بجانب صحف ومنصات يهودية.

فالسردية الصهيونية بشأن شيطنة حماس (والمقصود فعلياً شيطنة كل المقاومين) وتجريدهم من إنسانيتهم وارتكاب مقاتليها انتهاكات مختلفة منها مزاعم قطع رؤوس أطفال وقتل عجائز واغتصاب فتيات في 7 أكتوبر تصدعت بعد ظهور تقارير واعترافات صهيونية تنفي ما سبق ترويجه وعلى أساسه يتم تبرير مجازر غزة. وجاءت مشاهد وروايات الأسرى الصهاينة حول إنسانية حماس وتعامل المقاومة بأخلاقيات إسلامية معهم لتنسف السرديات التي بثتها اللجان الصهيونية.

وفي تقرير مفصل لصحيفة «هآرتس» العبرية 4 ديسمبر/كانون الأول 2023، فندت الكثير من الأخبار غير الدقيقة، والروايات غير الموثوقة، التي تم تداولها عن هجوم المقاومة الفلسطينية يوم 7 أكتوبر، ومن أبرزها مزاعم مقتل عشرات الأطفال، وأن ما جرى في ذلك اليوم أدى إلى انتشار «قصص رعب لم يحدث أي منها على أرض الواقع»، فأشارت إلى أن القصص المزعومة بشأن «الفظائع المُرتكبة»، استند بعضها إلى تفاصيل أدلى بها مسؤولون صهاينة، وجنود في جيش الاحتلال، ومتطوعون في فرق البحث والإنقاذ ثم تبين أنها «ادعاءات لا أساس لها من الصحة».

كما أقر جيش الاحتلال بأن إحدى هذه القصص المكذوبة، انتشرت بناء على مزاعم أدلى بها جندي إسرائيلي واحد، بعدما روجت لجانهم الإلكترونية لهذه القصص على نطاق واسع لجذب تعاطف العالم مع مجازرهم، لكنها انقلبت عليهم.

ظهرت أكاذيبهم أيضا حين تحدثوا عن 1400 قتيل «إسرائيلي» على يد المقاومة، ثم تبين أن 200 جثة تعود لشهداء فلسطينيين قصفتهم مروحيات ودبابات صهيونية في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 ومعهم أسرى صهاينة، وهو ما اعترفت به صحفهم.

كان أخطر ما جرى تسريبه حول الأكاذيب التي لفقها جيش الاحتلال لحركة حماس وفصائل المقاومة الأخرى في هجومها على قواعد عسكرية صهيونية في مستوطنات غلاف غزة، ما ذكرته صحيفة «هآرتس» 19 تشرين الثاني / نوفمبر 2023، حيث ذكرت أن «تقييمات المؤسسة الأمنية أظهرت أن مروحية قتالية تابعة لجيش الاحتلال وصلت إلى مكان حفل هاجمه مقاتلو القسام، وأطلقت النار على منفذي الهجمات هناك، فأصابت أيضاً بعض الصهاينة المشاركين في المهرجان».

وقد دفع هذا جيش الاحتلال الذي أقر ضمنياً بوقوع خطأ في إحصاء

عدد القتلى في 7 أكتوبر، لتقليص عدد الصهاينة منهم، من 1400 إلى 1200، بعد أن اكتشف أن 200 جثة متفحمة تعود لشهداء فلسطينيين.

و كانت مزاعم وجود مقر القيادة الرئيس لحركة حماس أسفل مجمع الشفاء غربي مدينة غزة، والتي جرى ترويجها بشكل واسع، لتبرير مهاجمة المستشفيات وإخلائها من المرضى والجرحى بشكل غير إنساني، هي أكبر أكذوبة سخر منها العالم.

كما اعترف إيهود باراك رئيس وزراء الاحتلال السابق أيضاً أن هناك ملاجئ تحت مستشفى الشفاء شيدتها «تل أبيب» وليس حماس، مشككاً في الرواية الصهيونية في لقاء صحفي مع قناة «سي إن إن» الأميركية 22 تشرين الثاني / نوفمبر.

وكانت الأكذوبة الأكبر، والتي جاءت مباشرة بعد خروج الأسيرات الصهيونيات مبتسمات وملوحات لمقاتلي حماس بالشكر، وثبوت أكذوبة قتل الأسيرات، التي روجت لها لجان الاحتلال حول اغتصاب نساء خلال هجوم يوم 7 أكتوبر، وذلك بعد أن زعمت «كوخاف الكيام ليفي»، الصهيونية التي عينتها «تل أبيب» للتحقيق في «جرائم الاعتداء الجنسي» لصحيفة «هآرتس» العبرية في 30 تشرين الثاني / نوفمبر أن حماس «استخدمت العنف ضد النساء كسلاح لكسر روح الصهاينة»، وروايات أخرى مفبركة لقادة ومسؤولين أمريكيين وصهاينة ثبت زيفها من خلال إعلامهم الذي لا يمكنه تجاهل ما ينشره إعلام وشعب وجمهور ومؤيدو المقاومة الفلسطينية على وسائل التواصل الاجتماعي.

والغريب أنه بفضل الدعاية المضللة، قبل كشف زيفها، لم يحصل جيش الاحتلال فقط على تعاطف الإعلام الغربي الذي كرر هذه الأكاذيب، بل أيضاً على دعم عسكري مباشر من الولايات المتحدة وبريطانيا.

وتجلى هذا الدعم في إرسال واشنطن حاملة طائرات والسفن الحربية المرافقة لها وغواصة نووية لحماية كيان الاحتلال الصهيوني، وتخصيصها 14 مليار دولار لدعمه في حربه ضد غزة، ووصول 200 طائرة شحن عسكرية تحمل معدات حربية، في المقابل ورغم نفي حماس ارتكاب مقاتليها لأي من المزاعم الصهيونية التي روج لها الإعلام الأميركي والغربي على نطاق واسع، لم يكن هناك في الغرب من يرغب في سماع الرواية الأخرى.

لكن المفاجأة أن الاعتراف جاء من داخل كيان الاحتلال ذاته ليصدم كل من صدق سرديته من

البداية بشكل أعمى ومن دون تحقق من صحة المعلومات التي روجتها اللجان الصهيونية.

وأظهرت دراسة أعدتها شركة «DMR» بتكليف من مجلة «إيكونوميست» البريطانية 2 تشرين الثاني / نوفمبر 2023، حول سلوك مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي خلال الفترة من 7-23 تشرين الأول / أكتوبر، من خلال جمع مليون مشاركة، أن نسب الدعم لحماس وكيان الاحتلال كانت متساوية يوم العملية، ولكن بحلول 19 أكتوبر 2023 أصبحت المنشورات المؤيدة لفلسطين أكثر بمقدار 3.9 مرات عن المنشورات المؤيدة لكيان الاحتلال، كما وثقت مقارنة بين عدد مشاهدات تطبيق تيك توك من خلال الوسوم بعد تاريخ 30 أكتوبر، أن وسم #standwithisrael جرت مشاهدته 324 مليون مرة، بينما #standwithpalestine شوهد 3.4 مليارات مرة.

ورغم مساعي الاحتلال محاربة المحتوى الفلسطيني على هذه المنصات، وتحريضه الدائم لإداراتها واستجابتها فعلياً، بفرض تقييدات للوصول وحجب الصفحات وحظر الحسابات وتجريم المصطلحات، واستهداف الصحفيين لحجب الصورة والحقيقة، نجحت الرواية الفلسطينية وبتفاصيلها القديمة والجديدة في شق طريقها والوصول للرأي العام، كما كشفت للدول العربية التي طبّعت علاقاتها مع كيان الاحتلال الصهيوني أنها «واهمة» وأن الأحداث الأخيرة عرّضت اتفاقات السلام مع كيان الاحتلال إلى «الموت الحتمي»، وإعلان دفنها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

نحو بناء حركة عربية

بشار شخاترة

كشفت معركة طوفان الأقصى عن نقيضين في بنية المجتمع العربي، فالأول تجلى بالحالة الكفاحية الملحمية العالية والقدرة الخلاقة على التحدي والمواجهة واجتراح المستحيل، لنتجرأ ونقول إن المستحيل ليس عربياً، فقد سطرت هذه المعركة منذ انطلاقتها في السابع من تشرين الأول سفراً تاريخياً ليس للعرب وحدهم بل للإنسانية بأسرها في أن الحقوق تنتزع ولا تمنح، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها، وسيبقى السابع من تشرين ترنيمة مقدسة لدى كل مناضل من أجل التحرر. وأما النقيض منه فهو حالة الكمون أو العجز الشعبي العربي عن الفعل الذي يجب أن يرتقي إلى الروح الكفاحية للمقاومة في غزة وللصمود المنقطع النظير للشعب العربي الفلسطيني في غزة، فالأصل أن تحدث الحركة الشعبية العربية ردة الفعل التي تتساوق مع مستوى المعركة في غزة.

لا نشك في أن الشارع العربي يغلي، وأن كوامن الأمة أكبر بكثير من ردة فعلها في الواقع، يقابلها

تخاذل الأنظمة الرسمية العربية الخاضعة للإرادة الأمريكية والصهيونية، وأن الانفصال بين الشارع العربي والأنظمة حالة تاريخية باستثناءات هنا وهناك، لكن المؤسف أن هذا الانفصال لم يترجم حتى اليوم فعلاً شعبياً على أرض الواقع، وبالأخص في ظرف المعركة الراهنة في فلسطين، لهذا فإن النتيجة المتحققة على الأرض فيما يتعلق بالواقع العربي عموماً تصب في صالح قوى العدوان باستثناء الإسناد اليمني واللبناني والعراقي والسوري لمعركة طوفان الأقصى.

إن حالة الغياب الفاعل لقوى الأمة في التدخل لنصرة غزة وفلسطين، وهو الغياب لما يمكن وصفه بالجماهير كمفهوم ثوري سياسي تنظيمي، فرغم انطلاق المظاهرات في أكثر من بقعة عربية إلا أنها بقيت أقل من مستوى الحدث ولم تأخذ الزخم المطلوب، وبالتالي كان الأثر الذي أنتجته المظاهرات متواضعاً في مواجهة الأنظمة العربية وأجهزتها الأمنية المتواطئة مع العدو، فالقاسم المشترك لدى الشارع العربي غياب الفاعلية والتأثير نتيجة غياب المراكمة والإنجاز والاستمرارية، وهذه بنى فوقية قاعدتها وجود التنظيم الشعبي الذي يمتلك الرؤية والبرنامج ويمتلك النظرية الفكرية.

فإذا نظرنا إلى الحالتين اليمنية واللبنانية، من منظور المعركة الراهنة، سنجد أن هاتين الساحتين تمتلكان التنظيم، التنظيم الذي يؤطر القوى ويخوض بها المعركة، في حين أن غياب التنظيم العربي العابر لحدود التجزئة العربية أخرج الشارع العربي من قدرته على الفعل، ومع هذا فإن الأنظمة العربية تخشى الشارع وتمارس عليه سياسة الجزرة والعصا وتمارس معه الخداع والتضليل.

سبق وأن أكدنا عبر مقالات سابقة عبر صفحات طلقة تنوير أن «الربيع العربي» ما هو إلا ربيع صهيوني، استهلك كثيراً من مخزون الأمة ونزوعها إلى التحرر والوحدة، وتم توجيهه لصالح الإمبريالية العالمية وربيبتها (إسرائيل)، وترك أثراً مدمراً على الأنظمة العربية المنحازة لقضايا الأمة وعلى رأسها سورية، وأبقى القوى الشعبية في الأقطار العربية التي تحكمها أنظمة عميلة من الملكيات وغيرها في حالة خوف وتوجس من السقوط في مستنقع الفوضى الذي أغرق دولاً مثل سورية والجزائر من قبل وليبيا والعراق واليمن، وعطل في الوقت نفسه آليات صعود التنظيم الشعبي العربي الذي يمكن أن ينهض من واقع السقوط الرسمي العربي واستسلامه في مواجهة الولايات المتحدة و(إسرائيل)، فغابت الفرصة لغياب الدول العربية

التي بمقدورها أن تكون الحاضنة لأي مشروع تنظيمي وحدوي تحرري.

هناك معضلتان تبرزان بشكل جلي وواضح تعطلان الفعل الشعبي العربي المناهض للعدو: أولاً، وجود أنظمة حكم عربية وظيفتها تعطيل أي حراك من هذا القبيل، وثانياً، غياب التنظيم الثوري الوحدوي، وهما معضلتان متلازمتان ومتناقضتان. كما يلاحظ أن الثقافة الاستهلاكية التي غزت العالم عموماً والوطن العربي خصوصاً أثقلت الكاهل العربي وثبطته رغم ثقل الواقع المعاشي في أغلب بقاع الوطن العربي، فالنزعة الاستهلاكية لدى المجتمع العربي خلقت أولويات هامشية وضبابية على حساب الأولويات الحقيقية التي إن تبناها العربي ستقلب واقعه رأساً على عقب نحو الأفضل مع الجزم أن الثمن الذي يمكن دفعه في هذه الحالة أقل بكثير مما تدفعه الأمة العربية اليوم من ذل وهوان وخسارة لعشرات الآلاف من الشهداء في غزة وللملايين في عموم بلاد العروبة، فكم دفع العراق وسورية واليمن والسودان وليبيا والجزائر؟!

فقد يكون صحيحاً القول وهو كذلك، إن غياب ما يمكن أن يخسره اليمني واللبناني، وعلى رأسهم الغزيون، حافزٌ للنهوض والانتفاض، وإن الخوف على مكاسب وهمية تشبع بها المجتمع العربي بفعل تعميم النزعة الاستهلاكية والاعتمادية العالية على الدولة لغياب الاقتصاد المنتج وتكريس الأنظمة العربية للاقتصاد الريعي، أوقع كله في روع الإنسان العربي القدرة في البحث عن الحل السليم وهو أخذ المبادرة والانخراط في العمل الجماهيري المنظم.

إذا كان احتلال فلسطين عام 48 قد أحدث زلزالاً عربياً مدوياً أدى إلى انتفاض الجيوش العربية وبدأ عصر الانقلابات على الأنظمة السائدة في حينه، فإننا اليوم أمام زلزال لا يقل عنه وطأة، فهل ننتظر حركات انقلابية ثورية جديدة على نمط 23 يوليو، هذا يبقى أملاً إن حدث فأهلاً به، ولكن نخشى أن نقع من جديد في إطار انقلابات وانقلابات مضادة، لهذا على الشارع العربي أن يعي هذه الحقيقة والأمل معاً ويتصرف على ضوئهما، وأن يأخذ المبادرة لأنها الأبعد عن الوقوع في براثن الإمبريالية إذا ما أحسن الإعداد لها، وليس على طريقة «الربيع العربي» المدمرة، فالشروع في بناء التنظيم الشعبي الثوري الوحدوي هو بداية الطريق للحل، والذي ينبثق من رؤية واضحة للتناقضات التي يعانيها الوطن العربي والمنحاز لقضايا الأغلبية الساحقة من المجتمع العربي والذي يحدد أعداء العروبة في الولايات المتحدة وحلفائها وتفرعاتها.

كما أنه على الحركة الجماهيرية التي نتحدث عنها أن تحدد أيضاً أن معركتها لا تنطلق في مواجهة أعداء الخارج إلا بكسر حلقات العدو الداخلية من أنظمة عميلة وملحقاتها وأذنابها،

فالمواطن العربي يعي تماماً اليوم أن الأنظمة العربية تمثل رديفاً للعدو الصهيوني في معركة طوفان الأقصى، وتمنع بشتى الطرق والوسائل إسناد غزة، وتشكل غطاءً لاستباحة الشعب الفلسطيني في غزة والضفة، وأن من يتعرضون للإبادة اليوم هم أخوتنا وأهلنا، وأن ترك غزة لمصيرها كمن ينتظر الدور غداً ليلاقي ذات المصير.

من أين نبدأ ؟

البداية تكمن بالمبادرة لدى الطلائع التي ترى هذا الواقع بوضوح لا لبس فيه، والعمل بالبحث على أرض الواقع الذي قد لا يحتاج إلى كثير عناء عمن يشاركنا هذه الرؤية، بمعنى بسيط بالدعوة إلى خلق التنظيم الجماهيري، فالأرض مهيأة والحالة الشعبية محتقنة ولا نبالغ إن قلنا إن هناك الملايين ممن يبحثون عن الذات العربية المفقودة وعن الكرامة العربية المهدورة بفعل أنظمة التخاذل، كل الحركات الكبرى في التاريـخ بدأت بفكرة وبثلة قليلة من المؤمنين بها تنازلت عن الكثير في سبيل ما تؤمن به، فالانتقال إلى الواقع إلى الشارع إلى الإنسان العربي لعله يفتتح الخطوة العشوائية ولكن المحسوبة في مسار البناء التنظيمي، وإن تحويل الواقع إلى فرص بالمثابرة والعمل الدؤوب غالباً ستوصلنا إلى الصيغة التنظيمية الأولى أو اللبنة الأولى في مدماك التنظيم المنشود.

ما جرى ويجري في غزة والنهوض من قسوة الحصار، ومن بين نيران العدو التي تلاحق كل سكنة وحركة، يعلمنا الدرس الأول أنه بالمثابرة والصبر نستطيع أن نصل إلى المبتغى، مع يقيننا أن العرب سواء في غزة وفي غيرها، ولكن الفارق يكمن في الظرف وفي المبادرة والاستمرار مع كثيرٍ من الصبر ودفع الثمن والاستعداد له.

والسؤال إلى كل مواطن عربي ماذا ننتظر؟ وإلى متى يجب علينا الانتظار؟

لقد سقط الرهان على التغيير من الأعلى، وذلك لأن الإمبريالية العالمية استطاعت بوسائل متعددة أن تنهي أو تحجّم الأعلى الذي نقصده إما بالحصار أو بإرسال طيور التطرف والظلام أو بالاحتلال المباشر، وحده الذي أثبت أنه عصي على الإمبريالية هو القاعدة الشعبية المؤطرة في تنظيم ثوري، وغزة ولبنان واليمن أكبر الأمثلة وأبلغها على ما نقول، ولكن ما نفتقده في هذه الساحات هو انحسارها في إقاليمها وذلك لأسباب مختلفة لا تخفى على أحد، بعضها مفهوم ومبرر وبعضها غير ذلك، لكنها تبقى محصورةً قطرياً أو إقليمياً، ولم تتمكن أن تصبح تنظيماً قومياً كاسراً لحدود التجزئة، لهذا فالتنظيم القومي الشامل سيمتلك القدرة على الانخراط أكثر في مجريات المواجهة أياً كانت ساحتها وعلى المبادرة الفاعلة التي تتجاوز أي حساب سوى حساب المصلحة القومية العليا.

حول أزمة الحوار والعمل المشترك

ناجي علوش (1992)

(مداخلة مقدمة في ملتقى الحوار العربي الثوري الديموقراطي في دورته الثالثة المنعقدة في ليبيا في 15-1992/4/18)

لقد بدأنا هذا الحوار منذ حوالي سنتين، وعلى رغم ذلك، فإننا لا نستطيع أن نقول إن الحوار قد قطع الشوط الأول الذي يؤهلنا لوضع أساس حوار متواصل منظم، ووضع برنامج عمل، ولو بمهمات محدودة.

وترى حركة التحرير الشعبية العربية أن الوصول إلى خطة حوار متواصل منظم، وبرنامج مهمات محدد، ولو كان برنامج الحد الأدنى، ضروري لثلاثة أسباب:

الأول، لأن الهجمة الإمبريالية-الصهيونية-الرجعية الاستسلامية شديدة وشرسة وتستهدف

الوجود العربي كله، كما تستهدف إحكام الهيمنة على «العالم النامي»، ومنه العالم الإسلامي.

وفي هذا الوقت، فإن العالم خالٍ من أية مواجهة جدية رسمية للإمبريالية، كما كانت الحال في ظل وجود الاتحاد السوفياتي. كما أن بنية النظام العربي لا تسمح بأية مشاركة جدية في المواجهة، بعد أن سلم معظم الأنظمة العربية تسليماً كاملاً.

الثاني، لأن الحركة الشعبية العربية تعيش أزمتها الخانقة نظرياً وعملياً، فهي منقسمة ومشتتة، وهي عاجزة نظرياً عن مواكبة التطورات السياسية والاقتصادية والأيديولوجية، كما أنها عاجزة بانقسامها، وتكيفها مع القمع السائد، عن تحمل مسؤولية المواجهة الشعبية.

الثالث، لأن وحدة أوسع قطاعات الشعب في المواجهة، وبلورة قواسم نظرية مشتركة ومهمات عملية محددة، ضروري للدفاع عن الوطن والشعب، ولإثبات القدرة على الصمود في معركة الوجود.

إلا أن هذا لم يحدث من قبل، وحين جرى اتخذ أشكالاً لم تساعد على البلورة والتحديد، ولم يقد إلى المزيد من التفاعل السياسي والفكري والعملي.

ونرى من الضروري أن نخوض في أسباب ذلك، مع أننا عندما نلمس الأسباب، ندخل مناطق الخلاف.

إن أسباب ذلك، من وجهة نظرنا في حركة التحرير الشعبية العربية، تتلخص بما يلي:

أولاً، أن أغلبية فصائل الحركة الوطنية والقومية العربية والإسلامية لا تربط بين الخطاب السياسي والمهمات العملية. لذلك، فإننا نجد الخطاب السياسي حماسياً، وفي بعض الأحيان، إلى درجة تغّلب «القعقعة» على العقل، من دون أن يربط ذلك بأي برامج عمل وخطوات عملية، ولهذا يفقد الخطاب مصداقيته.

ثانياً، أن أغلبية الفصائل تميل، ومنذ عقدين تحديداً، إلى إخضاع الأهداف السياسية لمنطق التنازلات المنسجمة مع حاجات النظام العربي والسياسة الإمبريالية الدولية. وبالتالي، فإن تحرير فلسطين يصبح برنامج حكم ذاتي، وشعار الوحدة العربية يصبح برنامج الجامعة العربية، وقضية الديموقراطية تصبح موضع اتفاق مع الأنظمة القمعية على تعايش يسمح لأنظمة القمع أن تبقى، وأن تتغطى بموافقة حزبية رسمية. ويسقط موضوع العدالة الاجتماعية من

جدول الأعمال، مع أن الفقر يتسع ويشتد، وغنى القلة يزداد تراكماً وفحشاً. وهكذا.

ثالثاً، أن معظم الفصائل تحاور وتناقش، ولكنها تعمل للمحافظة على مواقعها الفكرية والسياسية، وعلى صلاتها وحساباتها في علاقاتها مع الأنظمة. وكلٌ يريد أن يصبح قوياً وأن يتبعه الآخرون. هكذا فعل القوميون مع الماركسيين في الماضي، وهذا أيضاً ما فعله الماركسيون مع القوميين. وهذا ما يفعله اليوم من يسمون أنفسهم الإسلاميين.

رابعاً، أن الأحزاب والقوى تعودت التفرد خلال العقود الماضية، ولم تتعود التفاعل السياسي والتفكير المفتوح. لذلك، فإنها تواصل تفردها بالأساليب عينها، أو بوسائل أخرى، ومهما كانت النتائج.

إن هذا كله يفرض علينا بدء حوار من نوعٍ جديد لا يحاول الاحتيال على الأزمة، بل مواجهتها، ولا يقبل مواصلة خطابات المجاملة والدفاع عن النفس وعرض العضلات واستدرار التصفيق، بل يبحث عن مقومات المواجهة العملية، وحشد أوسع الجماهير لها.

فإذا أردنا ذلك، كان علينا، في سبيل تحقيق الأهداف التي من أجلها دعونا إلى الحوار، أن نعمل على ما يلي:

أولاً، تقسيم الحوار إلى محورين:

الأول، ويتعلق بالقواسم المشتركة التي يمكن أن نلتقي عليها. والهدف من ذلك تحديدها مؤقتاً لتكون أهداف النضال الراهن.

والثاني، ويتعلق بالحوار العام الشامل حول القضايا السياسية والأيديولوجية الكبرى.

وفيما يتعلق بالمحور الأول، فإن علينا أن نشدد على القضايا التالية:

1 – الوطن والدفاع عنه، والمصالح الوطنية العليا، ووجود الأمة والدفاع عنه إلخ...

2 – حقوق المواطنة والنضال في سبيلها، وبالتالي حق الشعب في حكم نفسه، أي الديموقراطية.

3 – المخاطر الداهمة وكيفية مواجهتها.

أما الحوار العام، فإنه أشمل وأوسع، ويستهدف المناقشة العامة.

وحتى لا يختلط نقاش المحور الأول بالمحور الثاني، يجب أن نحدد وقتاً معيناً لمناقشة المحور الأول، لنصل خلاله إلى بلورة قواسم مشتركة، مهما كانت محدودة، لنجعل من هذه القواسم برنامج التحالف السياسي الراهن، على أن تكلف لجنة بالإعداد للحوار الشامل الذي يتضمن:

أ – إعداد كل حزب أو قوة دراسات لبرامج القوى الأخرى وأدبياتها، ترسل إلى لجنة الحوار، لتناقش في أطر هذه الأحزاب، ولتنشر في منابرها.

ب – إعداد برنامج للحوار يوزع على كل القوى المشاركة في الملتقى، وتشارك فيه القوى المشاركة، كل حسب قدراتها.

وسيكون الهدف من هذا الحوار الشامل: التعرف على وجهات نظر القوى المشاركة، التفاعل السياسي والفكري، توسيع مساحة اللقاء ما أمكن، وتعميق وعي المفاهيم والمواقف. ولكن لا يجوز لأحد منا أن يظن أن الهدف هو فرض اتجاه على الاتجاهات الأخرى، لأن الاتجاهات المختلفة ستبقى، وسيظل هناك قوميون وماركسيون وإسلاميون، وسيظل هناك سلفيون ومجددون، وثوريون وإصلاحيون، إلخ...

إلا أن على هذا الحوار أن يعلمنا أمرين:

الأول، احترام وجهات النظر الأخرى، ومناقشتها بتروٍ وعمق، ومعرفة أبعادها المختلفة.

الثاني، العمل المشترك على القواسم المشتركة، رغم الاختلافات.

وهنا نرى من الضروري أن نشدد على الأمرين التاليين:

أولهما، أن الحدية الأيديولوجية والسياسية التي عشناها منذ أوائل الخمسينيات، والتي أدت إلى توتر دائم بين القوى، وتعطيل العمل المشترك، لم تثبت مع الزمن أنها ناتجة عن وعي أيديولوجي وسياسي وتماسك نظري، والتزام أيديولوجي وسياسي حازم.

لقد كشفت السنوات العشر الماضية مدى التخلخل السياسي والأيديولوجي لدى الأحزاب والقوى، ومدى الاستعداد للتنازل عن الأهداف. فقد اختلط القومي والقطري عملياً، والقومي والإسلامي، والقومي وما فوق القومي والماركسي والإصلاحي. وكشف معظم الثوريين عن

انتهازية سياسية. وهكذا، فإن هذه الأزمة الأيديولوجية والسياسية تمخضت عن خواء أيديولوجي وسياسي، وروح تنازلية استسلامية. وعلى رغم ذلك، فإن الفصائل المتنازعة لم تتحد، وإن اتحدت في المواقف العملية أحياناً، رغم استمرار تناحرها.

ثانيهما، أن الخلاف على النظري الشامل منع أي اتفاق عملي، حتى على ما يمكن الاتفاق عليه. ولقد ضُخّم النظري، وسخف العملي، وتم التركيز على نقاط الخلاف، وأهملت نقاط الاتفاق.

وهذا يدفعنا الآن إلى العمل باتجاهين متعاكسين:

الأول، التأكيد على أهمية القواسم المشتركة، والمهمات العملية، لتطوير العمل المشترك في القضايا التي أشرنا إليها آنفاً.

الثاني، تعميق الوعي بالقضايا الأساسية، وتوطيد الالتزام بها، لمعالجة الانهيار الأيديولوجي-السياسي الذي نعيش.

وبالتالي، فإن الحوار المشترك يجب أن يعيش وينمو في ظل العمل المشترك، لأن النضال المشترك يزيد المسؤولية المشتركة، ويدفع إلى التعمق في البحث والفهم، ويكشف الزيف والدعاوية الصاخبة، ويظهر حقيقة المتحاورين.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

نحو تصور عملي لتشكيل حركة شعبية عربية منظمة

إبراهيم علوش

أبرزت عملية طوفان الأقصى ظاهرتين متناقضتين في الشارع العربي: ظاهرة المد الشعبي العارم تجاوباً مع العملية المظفرة في أسابيعها الأولى، وظاهرة جزره الكبير في الأسابيع التي تلتها، على الرغم من تصاعد المجازر الصهيونية والتدمير المنهجي لغزة، بشراً وحجراً وشجراً، باستثناء التظاهرات الشعبية العملاقة في اليمن طبعاً، ثم المغرب.

وإذا كان تدفق الملايين إلى الشوارع في البداية قد أحيا الأمل بإعادة تفعيل الشارع العربي في اتجاه بوصلة مناهضة الصهيونية وداعميها والمطبعين معها، بما يمثل تصحيحاً لانحراف «الربيع العربي»، فإن خبو نار الاحتجاجات الميدانية في الشارع العربي، في الأعم الأغلب، في حين كانت اللحظة التاريخية تلقي على كاهل ذلك الشارع مهمات جسيمة سياسياً، أعاد رسم تساؤلٍ كبيرٍ في ذهن كل مناضل عربي معنيٍ بالتغيير الملموس: ما العمل؟

كانت اللحظة التاريخية تتطلب من الشارع العربي أن يؤجج الميادين كي يفرض على الأنظمة العربية المهمات الآتية:

أ – وقف التطبيع مع العدو الصهيوني بكل أشكاله، وإغلاق سفاراته في العواصم العربية.

ب – كسر الحصار على غزة، وفتح معبر رفح الذي يفترض أنه فلسطيني-مصري.

ج – دفع الأنظمة العربية لممارسة الضغط على الدول الغربية الداعمة للكيان الصهيوني عن طريق تفعيل أوراق مؤثرة مثل: قطع النفط والغاز عنها، سحب السفراء وصولاً إلى إغلاق السفارات، التلويح بالانحياز إلى روسيا والصين في الصراع الدولي، إلخ...

د – إيجاد منافذ لإيصال الدعم والمتطوعين إلى غزة بكل وسيلة ممكنة، بحسب ما يسمح به ميزان القوى، لأن الأساس هو المشاركة في القتال ودعم المقاتلين، والباقي عوامل مهمة، لكنها تبقى مساندة.

الحقيقة أن نزول المواطنين العرب إلى الشارع في الجولة الأولى دفع الأنظمة العربية إلى التراجع عن موقفها المعيب بعد أن أدانت عملية طوفان الأقصى، في اجتماع وزراء الخارجية العرب، على قدم المساواة مع ما يرتكبه الصهاينة من مجازر ودمار، ودفعها إلى تصنع التعاطف مع غزة إعلامياً.

لكنّ ذلك لا يكفي، بل كان يجب أن يستمر الضغط الشعبي على الأنظمة وأن يتصاعد أسياً، لا من أجل «إسقاطها»، بل لإجبارها على الانصياع لخيار الشعب العربي، سوى أن الشارع انحسرت فعاليته الميدانية في معظم الأقطار العربية، من دون أن تنتهي أو تضمحل، الأمر الذي يطرح ضرورة تحليل أسباب انحسار الحركة الشعبية العربية في عز اللحظة التاريخية التي كان يفترض فيها أن تتصاعد أكثر من أي وقتٍ مضى.

لا نقلل من شأن الإنجازات السياسية التي تحققت على مستوى الشارع العربي بعد عملية طوفان الأقصى، وأهمها إعادة الاعتبار لمركزية القضية الفلسطينية، وإضعاف موقف المطبعين والتسوويين العرب، وإعادة إحياء النفس المقاوِم، ولا سيما سمو العنف المسلح ضد العدو الصهيوني، وكشف نفاق الغرب الجماعي وازدواجيته، ومعه الليبراليون العرب المأخوذون به، وإرسال رسالة تحذير شعبية للأنظمة العربية كي ترعوي.

كذلك، لا بد من التنويه بنشاطين مركزيين شعبيين عربيين لدعم غزة نجحا نجاحاً باهراً في كثيرٍ من الأقطار العربية، وما برحا مستمرين، وهما:

أ – مقاطعة المنتجات «الإسرائيلية» وتلك الداعمة للعدو الصهيوني.

ب – النشاط الإعلامي المكثف عبر وسائل التواصل الاجتماعي دعماً لغزة ومقاومتها، ودحضاً للرواية الصهيونية.

لا يجوز النظر إلى المشهد الشعبي العربي بمنظار قاتم إذاً، ولا يجوز إغفال الإنجازات التي تحققت، لأن ذلك يقود إلى الإحباط، وتالياً إلى الاستسلام. ما نقوله هو إن ما تحقق أقل مما تتطلبه اللحظة التاريخية أولاً، وأقل مما يمكن أن تحققه الطاقة السياسية الكامنة لـ500 مليون مواطن عربي ثانياً.

سبقت الإشارة في مواضع أخرى إلى أن المنظومة الرسمية العربية صممت كي تكون عاجزةً أو متواطئة، فلا أمل يرجى من منظومة تجزئة افتعلت كي تحتجز الطاقات العربية وتشتتها وتوجهها ضد بعضها بعضاً. ولن أعود إلى مناقشة عدم جدوى المراهنة على المنظومة الرسمية العربية في مواجهة التحديات القومية الكبرى، من العراق إلى ليبيا إلى سورية إلى اليمن إلى فلسطين، ومن أزمة التنمية الاقتصادية العربية إلى مشاكل البطالة والسكن والفقر والعوز، فتلك انعكاسات فحسب لأزمة الدولة القُطرية، والتي سبق أن نوقشت في أكثر من عدد من مجلة طلقة تنوير.

لا رهان إذاً إلا على تفعيل الطاقة الشعبية العربية، والحقيقة أن خبو الحراك الشعبي بعد اشتعاله لم يكن مفاجئاً لكاتب هذه السطور على الأقل، وكما كتبت في عدد طلقة تنوير 90، في 2023/10/31: «لكنّ ذلك الحس العفوي الذي يدفع ملايين المواطنين العرب إلى الشوارع من أجل فلسطين... يبقى قاصراً عن تحويل تلك الطاقة الشعبية الجبارة إلى عمل ملموس قابلٍ للاستمرار وقادرٍ على مراكمة الإنجازات، لأن الطاقة التي لا تجد قنواتٍ توجهها نحو المصب الذي يجتذبها، الهدف الاستراتيجي، فلسطين، والتي أطلقتها جاذبيته أصلاً، يمكن أن تتسرب وتتبدد مؤقتاً، حتى تعود إلى التراكم ويطلقها صاعقٌ آخرُ كطوفان الأقصى».

ثم أضفت: «ثمة حلقة مفقودة إذاً يمكن أن تحول الطاقة الشعبية العربية إلى دعمٍ ملموس لنقاط الصدام العربية مع الاحتلالات وقوى الهيمنة الخارجية، وليس العدوان الأخير على غزة المثال الأول في تاريخنا العربي المعاصر على غياب تلك الحلقة».

في الواقع، ليست تلك الحلقة المفقودة سوى الإطار، أو مجموعة الأطر، كما سنرى، التي يمكن أن تعبئ طاقات الشعب العربي وأن توجهها لتحقيق المهمات الملقاة على عاتقه في الظروف الملموسة التي نعيشها اليوم، وعلى رأسها ظروف العوائق التي تمثلها الأنظمة العربية من دون الانجرار إلى صدامات وحروب أهلية على غرار «الربيع العربي».

بناءً على ذلك استنتجت أن المهمة المركزية الآن هي «بناء شبكات غير مركزية عابرة لحدود التجزئة القُطرية... وأن تسعى تلك الشبكات إلى التحول إلى قوة أو رافعة أو بُنى للدفاع عن المصالح والقضايا العربية العليا».

إن تلك الشبكة هي ذاتها الحركة الشعبية العربية المنظمة، والتي سبق التطرق إلى معالمها الأساسية في الفصل الثاني من كتاب «مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي» (2009)، أي أن تأسيس الحركة الشعبية العربية المنظمة لطالما مثّل مهمةً تاريخيةً مطروحةً منذ عقود على عاتق المناضلين العرب، لكنّ الأزمات الحادة التي تندلع بين الفينة والأخرى، والتي تنشأ عن التحديات القومية الكبرى التي تواجهها الأمة العربية، تعيد طرحها بقوة كل مرة، تماماً كما تفعل اليوم معركة غزة المحتدمة التي تشعرنا مجدداً بوطأة غياب مثل تلك الحركة الشعبية العربية المنظمة، والتي ينتج عنها تعطيل فعالية الشعب العربي الميدانية عندما نكون بأمس الحاجة إليها.

فكيف نبدأ بتأسيس مثل تلك الحركة الشعبية العربية المنظمة؟

يمثل ما يلي فاتحة حوار أو مقترحات قابلة للتطوير لا أدعي بتاتاً أنها الحل السحري الناجز أو الطريقة الوحيدة التي لا ولم توجد طريقة غيرها قط للعمل لتحقيق هدف تأسيس الحركة الشعبية العربية المنظمة، ويبقى الباب مفتوحاً للمقترحات على مصراعيه ما دمنا مجمعين على ضرورة تأسيس مثل تلك الحركة.

إن أهم صفتين، برأيي المتواضع، للحركة الشعبية العربية المنظمة التي يفترض أن نتداعى إلى تشكيلها في هذه المرحلة، هما:

أ – أن تكون لا مركزية، ومرنة تنظيمياً وأيديولوجياً.

ب – أن تكون عابرة للأقطار العربية، أي أن تنظم نشاطاتها قومياً.

إن أهمية اللامركزية تنظيمياً، في ظروفنا العربية الراهنة بالذات، تكمن في أنها:

أ – تتيح استيعاب كل المبادرات والفعاليات الشعبية العربية، وكل الأحزاب والجمعيات والنقابات والشخصيات والقوى المجتمعية وجموع المستقلين، المنخرطين فيها، من دون أن يشعر أيٌ من مكوناتها أنه يتعرض للتجيير شخصياً أو سياسياً أو حزبياً. باختصار، دعوا مليون زهرة تتفتح من مختلف الألوان، وما دامت كلها تزهر في حقلٍ واحدٍ في النهاية، فإنها تكمل بعضها بعضاً. ومن يريد أن ينشئ مبادرة ضمن الهدف العام فليفعل على بركة الله، والمطلوب فقط هو إنشاء حلقات تنسيق بين الأجزاء.

ب – تتيح قطع الصلة مع أي حلقة يجري اختراقها أو إسقاطها أو انهيارها بسهولة نسبياً، من دون أن يعرض ذلك بنية الحركة برمتها إلى هزة أو إلى فشل، كما يحدث في الأطر مركزية الطابع. ويبقى من حق من يرغب أن يؤسس تشكيلات مركزية علنية أو سرية خاصة به، وأن ينخرط في الحركة الشعبية العربية المنظمة بصفته تلك، وربما يكون لمثل تلك التنظيمات فائدتها ومكانها، لكنّ الحركة الشعبية العربية المنظمة ذاتها يجب أن تبقى متعددة الرؤوس، وأن تبقي الباب مفتوحاً أمام المبادرات الجديدة دوماً.

ج – تجنِبنا الصراعات التاريخية في حركة التحرر العربية الناتجة عن محاولة مصادرة الآخرين، وتلوين الجميع بلونٍ واحدٍ، حزبياً أو أيديولوجياً. فمشروع الحركة العربية الواحدة مثلاً يقتصر على الناصريين، وكل حزب بعث على البعثيين من لون محدد، وكل تجمع ماركسي على الماركسيين من نوع محدد، وكل إطار إسلامي على الإسلاميين من لون محدد أيضاً، إلخ... في حين أن المطلوب هو حشد الطاقات في شبكات متعددة الشرائح والأبعاد نحو هدف محدد، ولكلٍ أن يحتفظ بهويته الأيديولوجية أو الحزبية، إن وجد، من دون ضغط أو إكراه، وأن يدعو لها لوحده خارج سياق النشاط المشترك.

والعبرة هنا في شد أواصر تلك التشكيلات كافةً بعضها ببعض عبر منظومة روابط رسمية وغير رسمية عابرة لتلك الأطر، والتي لا تنشأ مثل تلك الحركة من دونها.

أما أهمية النشاط والتشبيك القوميين العابرين للأقطار فيكمن في أنهما:

أ – يعيدان الاعتبار إلى مفهوم الجماهير العربية، بصفتها فاعلاً سياسياً مؤثراً وذا وزن، بما يزيد أثرها، سياسياً وإعلامياً، عن أثر الحراكات المنحصرة في قُطر عربي بمفرده أضعافاً مضاعفة.

ب – يحشدان القوى الشعبية العربية في مواجهة تحديات عابرة لحدود الأقطار بطبيعتها، التطبيع نموذجاً، فالتحديات القومية تجدر مواجهتها بأدوات قومية، لا قطرية.

ج – يسحبان الذريعة من أيدي الأنظمة العربية التي تتذرع بالأنظمة الأخرى، وبأنها لا تقوى على مقاومة التيار وحدها، عندما يمارس الضغط الشعبي على كل الأنظمة أو غالبيتها في آنٍ واحد.

د – يقدمان نوعاً من الحماية والدعم المتبادلين للأطر والنشاطات المنضوية في الحركة الشعبية العربية المنظمة في أي قُطر عربي، في حالة الاعتقال أو التنكيل، على سبيل المثال لا الحصر.

هـ - يؤمّنان موارد مادية وبشرية أكبر بكثير مما يمكن تأمينه من قُطر عربي واحد، وهي موارد يمكن توجيهها في اللحظات المفصلية نحو نقاط الصدام الحاسمة مع الاحتلالات وقوى الهيمنة الخارجية.

العبرة هنا في شد أواصر تلك التشكيلات كافةً بعضها ببعض عبر منظومة روابط رسمية وغير رسمية عابرة للأقطار العربية (والمهاجر)، والتي لا تنشأ مثل تلك الحركة من دونها.

تخيلوا مثلاً ألف بيان ومنشور يصدر من ألف جهة مختلفة في يومٍ واحد عبر الأقطار العربية عن معتقل واحد، أو للدعوة لنشاط عملي واحد، أو لإعلان موقف واحد يدين عملية تطبيعية معينة، وأن لا يكون ذلك ذباباً إلكترونياً... إن ذلك وحده كفيلٌ بهز أي منظومة، مهما تجبرت، وتلك فتحة عداد فحسب، يمكن أن يليها كثير.

حول آلية عمل الحركة الشعبية العربية المنظمة

لعل التنسيق بين الأطر من جهة، وبين الأقطار من جهةٍ أخرى، يصبح أكثر أهمية لعمل الحركة الشعبية العربية عندما لا يكون تنظيمها مركزياً، ويمكن التفكير هنا بكثيرٍ من الصيغ للتنسيق بين الأطر المختلفة، سواء عبر الأقطار العربية (والمهاجر طبعاً) أو في كلٍ منها.

لكنّ من أهم حلقات التنسيق تبقى المنصات الحوارية، الحقيقية أو الافتراضية، التي يمكن من خلالها الوصول إلى اتفاق، أو شبه إجماع، بشأن الحملات والنشاطات والفعاليات التي يتوجب توجيه الجهود إليها في كل مرحلة من المراحل. فالحركة الشعبية العربية المنظمة لا قيمة لها إلا إذا نفّذت نشاطات عملية، وإلا إذا تحولت إلى جهة تنفيذية، وهذا

هو مغزى تعبئة الشارع في المحصلة.

لكنّ الفرق بين حركة شعبية عربية عفوية، وحركة شعبية عربية منظمة، ينبع بالضبط من قدرتها على برمجة نشاطاتها وأولوياتها، وعلى ممارسة حد أدنى من الضبط يمنع انفلات الفعاليات أو اختراقها أو تحويلها عن مسارها. وهذا لا يتحقق إلا إذا جرى التوصل إلى اتفاق أو شبه إجماع بشأن ما ينبغي، وبالتالي ما لا ينبغي، القيام به في أي لحظة من اللحظات، ومن هنا أهمية المنصات الحوارية، والتي يفترض أن تكون موجهة لتنظيم العمل الميداني أساساً.

نحتاج هنا، مجدداً، إلى عددٍ من المنصات الحوارية، لا إلى منصة مركزية واحدة، للأسباب ذاتها الواردة أعلاه التي تدعو للتشديد على لا مركزية الحركة، ومن البديهي أن تنشأ عن ذلك عدة منصات كبيرة ومتوسطة وصغيرة، على أن يبقى الباب مفتوحاً أمام أي منصات جديدة.

من الأمثلة على تلك المنصات: الصفحات الإلكترونية، المواقع الإنترنتية، اللقاءات عبر البرامج الافتراضية، الاجتماعات التنسيقية في الفضاء الحقيقي، الثنائية والثلاثية والرباعية وأكثر، الأطر الدائمة للتنسيق التي توجد لها أمانات عامة، والحوارات الفكرية التي تجري على هامش تلك اللقاءات كافةً. والمهم أن تكون تلك المنصات موجهة للتداول فيما ينبغي القيام به من نشاطات وفعاليات.

وأعرض في هذه المناسبة، باسمي، وباسم رفاقي في لائحة القومي العربي، كل منابرنا للخوض في مثل تلك الحوارات، مع التأكيد على استعدادنا للانخراط فيها ولو لم تجرِ في منابرنا، بل في أي منبر ذي مصداقية.

لا بد، برأيي المتواضع، أن يتخصص الحوار، ربما في منابر مختلفة، في ثلاثة مستويات:

أ – المهمات قصيرة المدى، للعمل على قضايا راهنة محددة، على سبيل المثال، الاحتجاج جماعياً على جولة لمسؤول أمريكي ما في المنطقة، كل إطار أو فرد حتى، بحسب ما يراه مناسباً. المهم أن يكون النشاط موجهاً ضد تلك الجولة في الفترة الزمنية ذاتها. تخيلوا ألفي منشور مثلاً، ومئة اعتصام كبير أو صغير، وعشر محاضرات، في مدنٍ عربية مختلفة، ومن يلحن أغنية ساخرة، ومن يرسم كاريكاتوراً، إلخ... ضد تلك الجولة خلال فترة إجرائها، وبعشرين لون سياسي أو أيديولوجي، كم سيكون الأثر كبيراً.

ب – المهمات طويلة المدى، وأهمها في هذه اللحظة الحوار حول تأسيس الحركة الشعبية المنظمة ذاتها، وهو ما يمكن اعتبار هذه المادة إسهاماً فيه، لكنّ المهمات طويلة المدى

هي تلك التي تدخل تحت باب النشاطات الدائمة، مثل مناهضة التطبيع، دعم المقاومة، انتهاك الحصارات، إلخ... وهنا تتطلب المهمة وضع برامج عمل طويلة المدى تحدد أهدافاً قابلة للتحقيق، وتحشد الإمكانات لتحقيقها.

ج – الحوار بشأن أولويات العمل في كل مرحلة، وبسقوفه، وبطرقه، وهو ما يمكن أن يدخلنا في خلافات فكرية أو سياسية طبعاً، الأمر الذي يمكن أن يشكل باباً لتشتيت الصفوف. وهي مخاطرة يصعب تجنبها ما دمنا نتعامل مع تعددية ألوان سياسية وأيديولوجية وقوى وشخصيات متعددة، لكنها مخاطرة يمكن إدارتها بالتركيز على القواسم المشتركة الأكبر، وبوعي الحريصين على تماسك المشروع، وبالإدراك الكامل أن أي قوة، مهما كانت كبيرة، لا يمكن أن تكون أكبر من باقي القوى مجتمعة ومعهم المستقلون، وبالتالي الإدراك أن الاستئثار بالقرار يعزلها عن الأغلبية ويضعف النشاط العملي.

ما سبق مداخلة فحسب في مشروع تأسيس حركة شعبية عربية منظمة ما برح يحتاج إلى كثيرٍ من النقاش والعمل. وتبقى العبرة في ترجمة الفكرة إلى عمل ملموس.

مقاربة تاريخية لتجليات الصهيونية في الهوية السياسية الأمريكية

إبراهيم حرشاوي

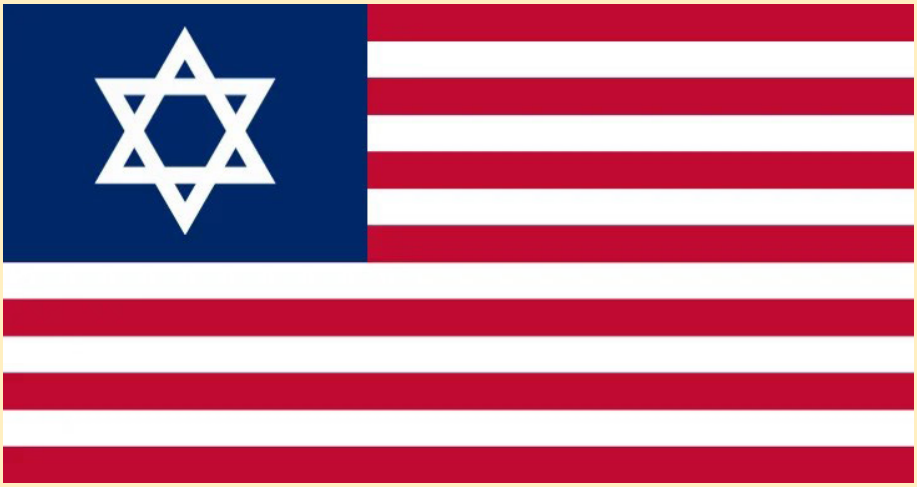

كثيرا ما يربط المرء خصوصية العلاقة «الإسرائيلية» الأمريكية بدور اللوبي الصهيوني وتأثيره على القرار السياسي الأمريكي، ولا سيما القرارات الكبرى المتعلقة بالسياسات والاستراتيجيات التي تستهدف الوطن العربي والعالم الاسلامي.

وليس ثمة شك بأن قوة اللوبيات ومؤسسات من حجم (لجنة الشؤون العامة الأمريكية «الإسرائيلية»)، المعروفة باسمها المختصر «الأيباك»، أو «معهد المشروع الأمريكي لأبحاث السياسة العامة»، الذي يمثل مرتعاً فكرياً-سياسياً للمحافظين الجدد، تترك بصمات جوهرية على طبيعة توجهات تلك الخصوصية والسياسة الاستراتيجية النابعة منها.

إلا أن الفكرة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية ترجع إلى بداية تشكل الهوية السياسية الأمريكية، أي إلى المرجعية الدينية التي نهلت منها «الثورة الأمريكية»، حيث تمكنت النخب الأمريكية عبر مراحل عديدة من تشكيل هوية سياسية مبنية على توافق بين مبادئ فلسفة الأنوار والخلفية البروتستنتية للمستوطنين الوافدين من أوروبا. وقد حمل المستوطنون الأوائل في أمريكا الشمالية في جعبتهم قناعة صهيونية وصليبية راسخة، تعود بدورها إلى جذور الحوافز الصليبية لكريستوفر كولومبوس وإسبانيا الاستردادية في سياق «اكتشاف» طريق بديل إلى «الشرق» و«الأرض المقدسة». وترمز بعض المفاهيم الرائجة بالثقافة السياسية الأمريكية إلى هذا الإطار المرجعي، ونذكر على سبيل المثال «الخصوصية الأمريكية»، و«القدر المتجلي»، و«الحلم الأمريكي».

وبخصوص الهوية السياسية للمستوطنات إبان القرن السابع عشر، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار البعد الخلاصي لهذه الهوية عند المستوطنين البروتستنتيين. فقد جعلوها بدرجات متفاوتة جزءاً أساسياً من مشروعهم السياسي الاستعماري. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى ما قاله حاكم مستعمرة خليج ماساتشوستس «جون وينثروب» (1588-1648) في أحد خطاباته التي ادعى فيها أن مستوطنته هي في الحقيقة «مدينة فوق التل»، وهي بالمناسبة عبارة دينية منسوبة إلى يسوع بإنجيل متى. وقد أصبحت فيما بعد من المقولات الرائجة لدى النخبة الأمريكية الحاكمة، وتحديداً عند الرؤساء والوزراء من أمثال الرئسيين كنيدي وريغن ووزير الخارجية الأسبق بومبيو.

المقصود من توظيف عبارة «مدينة فوق التل»، عند «جون وينثروب» ومن أتى بعده، التعبير عن تجليات فكرتي «المملكة الألفية» و«أرض الميعاد» وغيرها من الأفكار الخلاصية التي أصبحت حسب تصوراتهم تتجلى بمستوطنات أمريكا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية لاحقاً. ومن المهم هنا التأكيد على أن معظم المستوطنين كانوا مضطهدين بحكم تواجدهم كأقليات بروتستنتية تحت هيمنة الكنيسة الكاثوليكية بأوروبا، أو بصفتهم من الطوائف البروتستنتية المجددة، مما جعل الكثير منهم ينظر إلى هجرتهم إلى «العالم الجديد» من منظور قصة خروج «بني إسرائيل» على يد النبي موسى إلى فلسطين القديمة، وهو الأمر الذي عزز فكرة اعتبار أمريكا بمثابة أرض الميعاد أو «إسرائيل الثانية».

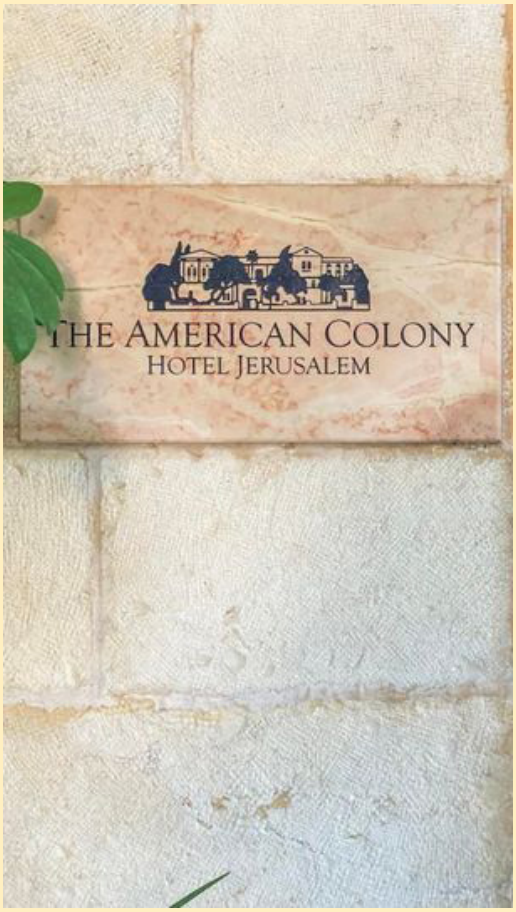

ونجد هذه النزعة طاغية عند أساطين الأدب الأمريكي، وعلى رأسهم الشاعر تيموثي دوايت الذي اشتهر بقصيدته الملحمية «غزو كنعان» (The Conquest of Canaan). وتتضمن قصيدته التي نشرت سنة 1785 مقارنة مختبئة بين قصة احتلال يشوع بن نون لكنعان في العهد القديم والبطولات «التحررية» لجورج واشنطن أمام البريطانيين. وعلى نفس المنوال نذكر الكاتب هرمان ملفيل الذي كتب في روايته «السترة البيضاء- أو العالم في رجل الحرب» (The White Jacket or The world in a Man of War)، والمنشورة سنة 1850، عن تجربته بالجيش الأمريكي واصفاً الهوية الأمريكية في إحدى فقرات الكتاب كالآتي: «نحن الأمريكيين متفردون وشعب مختار، إننا «إسرائيل» زماننا، نحمل سفينة حريات العالم».. ويضيف في فقرة أخرى: « لكم تشككنا في نظرتنا إلى أنفسنا، ولطالما ساورنا سؤال عما إذا كان المسيح السياسي قد جاء، ولكني الآن أقول إنه جاء متمثلاً فينا ولا يبقى سوى أن نعلن خبر مجيئه». كما تجدر الإشارة في هذا المضمار إلى «شاعر الثورة الأمريكية» فيليب فرينو الذي وضع احتمال ظهور«أورشاليم الجديدة» بالولايات المتحدة في قصيدة «المجد الصاعد لأمريكا»(The Rising Glory of America).

ومع ظهور «الأفكار الخلاصية» المتصهينة وترويجها عن طريق منابر القساوسة البروتستنت المتجددين من ناحية، وعبر الخطاب الثقافي والسياسي من ناحية أخرى، أصبحت مع مرور الوقت تشكل أحد الأركان الثابتة للهوية السياسية الأمريكية. واتسمت فترة ما بين القرن السابع عشر والثامن عشر، التي يمكن اعتبارها المرحلة الأولى أو التأسيسية للحركة الصهيونية بالولايات المتحدة، في ترويج الأفكار الخلاصية وإضفاء ظهور«إسرائيل» على الأمة الأمريكية الفتية بدون تعبير عن رغبة احتلال فلسطين بشكل علني وعملي.

وكانت هذه الظاهرة كذلك ملحوظة خارج أمريكا مع صعود المسيحية الصهيونية كقوة سياسية أو منظمة، على سبيل المثال في هولندا التي وُصفت بـ«إسرائيل» الغرب (van “Israël” het westen) من قبل أحد شعرائها البروتستنتيين النافذين في القرن التاسع عشر وهو «إسحاق دا كوستا»، ناهيك عن تجربة الزعيم البروتستنتي الهولندي يوحنا الليداوي، المعروف

بقيادته «تمرد منستر» بوستفاليا سنة 1534، وتنصيب نفسه ملكاً على مدينة مونستر وإطلاق إسم « أورشاليم الجديدة» عليها.

أما ما يمكن تسميته بـ«المرحلة الثانية»، فبدأت مع التطور الذي شهده خطاب المسيحية الصهيونية بعد استقلال أمريكا، إذ شرع هذا المذهب بإطلاق دعوة علنية لتأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين. وتأخذنا هذه المحطة في التاريخ السياسي الأمريكي إلى مبادرات مركزة باتجاه فلسطين إبان القرن التاسع عشر ضمن دوائر سياسية ودينية وازنة. ونجد ضمن هذه الدوائر شخصية من عائلة بوش الأمريكية التي يتم تصنيفها ضمن أنجح السلالات الحاكمة في تاريخ الولايات المتحدة، ويتعلق الأمر بالقس والأستاذ الجامعي المتخصص في اللغة العبرية جورج بوش الذي ألف كتاباً في سنة 1844 بعنوان «وادي الرؤية أو إحياء عظام «إسرائيل» الجافة»(The Valley of Vision or The Dry Bones of Israel Revived) يدعو فيه بلزوم عودة اليهود إلى «إسرائيل»، مبرراً ذلك بحجة رفع الظلم الذي تعرض له اليهود عبر التاريخ حسب زعمه. كما أن له كتاباً آخر عن النبي محمد (ص) على النمط الاستشراقي تحت عنوان «حياة محمد» (The Life of Mohammed)، ويعد هذا الكتاب أول كتاب نُشر عن السيرة النبوية في أمريكا، حاك فيها سردية معادية لشخصية النبي(ص) الذي نعته «بالمخادع والدجال».

في خضم هذه المرحلة شُكل «مجلس المفوّضين الأمريكيين بالإنجيل في الأراضي الأجنبية» عام 1810، وانطلقت إرساليات المجلس نحو فلسطين لاستكشافها والعودة إليها بصفتها «أرض الميعاد المقدسة». أدت هذه الديناميكية الاستعمارية في نهاية القرن التاسع عشر إلى تحقيق خطوة استيطانية ملموسة بإنشاء «المستعمرة الأمريكية» (The American Colony) بمدينة القدس في سنة 1881 من قبل أعضاء المجتمع الطوباوي المسيحي للتعجيل بـ«المجيء الثاني للمسيح»، أي ثلاث سنوات بعد إقامة «بتاح تكفا»، أول مستوطنة يهودية في فلسطين، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار مشاريع المصرفي موشيه مونتيفيوري الاستيطانية في القدس وغيرها ابتداءً من عام 1855.

أما في ما يتعلق بنشاط يهود أمريكا إزاء خدمة المشروع الصهيوني، فلم يكن دورهم في المرحلة الأولى طلائعياً، إلا أنهم خلال وبعد الثورة الأمريكية بدأ نشاطهم السياسي يطفو تدريجياً على السطح مع توليهم مناصب عليا ضمن مناخ سياسي متعاطف وملائم. كان بداية صعودهم السياسي يمثله مشروع «أرارات» في سنة 1825، أي قبل قيام أول منظمة يهودية-صهيونية في الولايات المتحدة (المنظمة الصهيونية الأمريكية) في سنة 1897. وقد أشرف على مشروع «أرارات» السياسي والكاتب المسرحي اليهودي مردخاي مانويل نوح، وهو المشروع الذي كان يرمي إلى تأسيس دويلة يهودية بجزيرة «غراند أيلاند» بولاية نيويورك.

غير أن مشروع «أرارات» لم يجذب الكثير من الأتباع وجعل صاحبه في نهاية المطاف يوجه أنظاره نحو خيار احتلال فلسطين.

لم يمر كثيرمن الوقت حتى شهدت الساحة السياسية الأمريكية حملة صهيونية منظمة، وهي «عريضة بلاكستون» Blackstone Memo) rial)التي كُتبت سنة 1891 بهدف تسليمها للرئيس الأمريكي بنيامين هاريسون لإقنائعه بدعم مشروع دولة يهودية. يرجع اسم هذه العريضة إلى رجل الأعمال والداعية البروتستنتي وليام بلاكستون، الذي تمكن من الوصول إلى شخصيات مؤثرة في الولايات المتحدة بعدما روج عريضته في خمس مدن رئيسية: بوسطن وبالتيمور وفيلادلفيا ونيويورك وشيكاغو. وقد وقعت عليها في تلك المدن أزيد من أربعمائة شخصية أبرزها رجل الأعمال «جون دافيسون روكفلر» و«ويليام ماكينلي» الذي سيصبح فيما بعد رئيس الولايات المتحدة (1897-1901)، بالإضافة إلى رئيس المحكمة العليا ملفيل فولر.

والحق أن هذه العريضة -بحكم سياقها ومضمونها- لا تقل في أهميتها التاريخية عن «إعلان بلفور»، بل هي مرتبطة بـ«إعلان بلفور» ارتباطاً وثيقاً، علماً أن نسخة ثانية للعريضة سُلمت لاحقاً للرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» لتعزيز «إعلان بلفور» البريطاني ودعم قرارها الاحتلال اليهودي لفلسطين. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى، أقدم الكونغرس الأمريكي على تمرير قرار مشترك يؤيد فيه إعطاء «بني إسرائيل» الفرصة، التي أُنكرت عليهم طويلاً، لإعادة تأسيس حياة يهودية، وثقافة مثمرة في «الأرض اليهودية القديمة». ولا شك أن تلك المرحلة، من خلال هذا القرار، وصلت إلى ذروة سياسية مع تبني الدولة الأمريكية بشكل رسمي سياسة دعم نشأة الكيان الصهيوني. وازداد هذا التبني الرسمي رسوخاً عندما أصدر الكونغرس سنة 1935 قراراً طالب فيه الحكومة الأمريكية ببذل جهودها لفتح باب الهجرة لليهود نحو فلسطين وتمكينهم لبناء كيانهم.

إذن، يتوجب بناء مقاربة خصوصية العلاقة الأمريكية - «الإسرائيلية» على خلفية هذه البنية

الأيديولوجية للصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية، فبدون هذه العدسة لا يمكننا فهم مثلاً دلالة الخبر المتداول مؤخراً عن تصريح أدلى به الرئيس الأمريكي جو بايدن خلال استقباله الأخير للرئيس الصهيوني يتسحاق هرتسوغ، قال فيه حرفياً: «لو لم تكن «إسرائيل» موجودة، لكان علينا اختراعها».

منبر حر: نحو جسر حواري مع الخط القومي السوري

سؤال الهويَّة العربيَّة السّوريَّة: طرحٌ لا بُدَّ منه

يزيد جرجوس

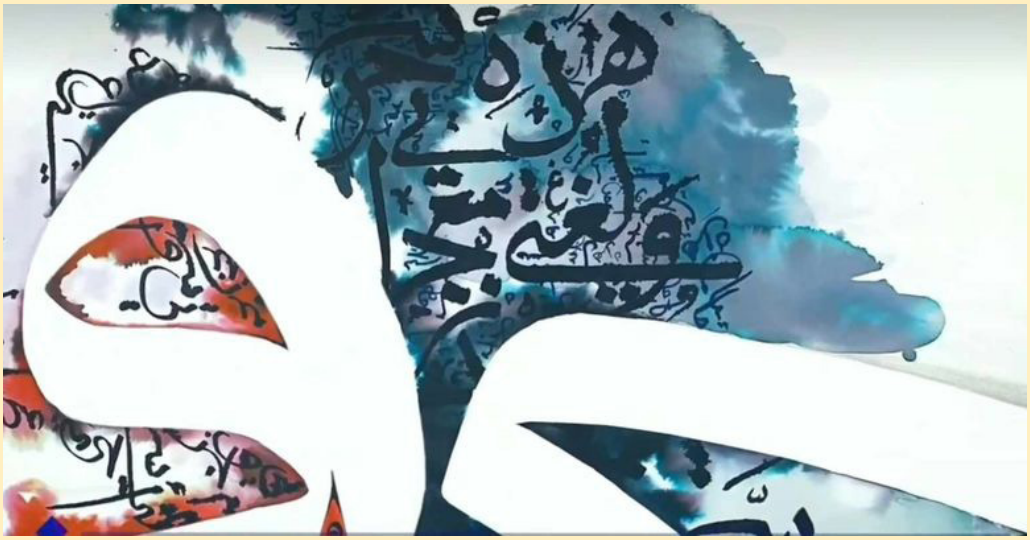

يبدو لي من منطلقٍ علميٍّ بحت، أنَّ طرح سؤال الهويَّة هو أمرٌ مشروعٌ ومن حقِّ الجميع، لأنَّ الهويَّة والانتماء كمفاهيم، ليست أمراً ثابتاً عبر التَّاريخ من جهة، كما أنَّها وكلَّما كانت رحبة وقابلة للنقاش ولاستقبال الأسئلة وللرد عليها باحتواء، فإنَّها ستعَبِّرُ عن قوّة حضاريَّة أكبر، وستُعطي نفسها والمنتمين لها ذلك الأفق الرَّحب المأمول منها.

في إطار ذلك كلّه يُمكنني أيضاً أن ألفِتَ النَّظر إلى أنَّ طرح تلك الأسئلة المفاهيميَّة الوجوديَّة كسؤال الهويَّة وقت الأزمات على العامَّة يحمل الكثير من المحاذير لعدَّة أسباب منهجية أوردُ بعضها:

• برغم أنَّ سؤال الهويَّة يحضُر تلقائيَّاً في الأزمات، ولكِنَّ طرحه يزيد من سطوة ذلك

الحضور بصورة مُفتعلة، فلا يعود التَّساؤل بريئاً تماماً وعَفويَّاً، ولكنَّهُ أيضاً يصيرُ مُثاراً بصورة مقصودة وربَّما ضمن أجندات معيَّنة تعمل على هدم الهويَّة المعنيَّةِ باستخدام السُّؤال ذاته، وما أكثر تلك الجهات في عالم اليوم الذي يتَّسِمُ بالتَّرَبُّصِ السَّياسي والصِّدامات الجيوسياسيَّة المستمرَّة.

• عدم امتلاك الجمهور المُستَهدَف والمشغول بسؤال الهويَّة، للأسلحة المعرفيَّة المناسبة واللّازمة للتَّصدي لمثل هذه المُهِمَّة بالغة الجدِّيَّة والدِّقَّة، وهذا ما يضع الهويَّة في مهَبِّ ريح العبث والتشويه، شأنها شأن أيِّ موضوعة أو مفهوم يتم البتُّ فيه من قبل غير المختصّين، خاصَّةً وأنَّ الأهواء ستأخذُ لها حيِّزاً مهماً في إطار البتِّ ذلك، تماماً كما تفعل الأجنداتُ والأيادي العابِثة.

• إنَّ الإجابات المصيريَّة لا يَجِبُ أن يَتِمَّ بحثُها تحت ضغط الشُّعور، لأنَّ ذلك الضَّغط سيقوم بإضعاف رباطة الجأش العلميَّة، وتالياً سيضيّقُ هوامِش الموضوعيَّة المطلوبة لإنجاز المهمّات المعرفيَّة المصيريَّة. إنَّ الهويَّة وإن كانت مسألةً تُساهِمُ في صياغتها تلك المشاعر الجماعية تجاه التَّاريخ والإرث المُشتَرَكين وعلى مر مئات السِّنين على أقلِّ تقدير، إذا لم نقل آلافها، ولكِنَّها قضيَّة علميَّة حضاريَّة وليست تعبيراً عرضيَّاً عابراً عن المشاعر الآنيَّة، فالهويَّةُ تراكمٌ حضاري تعي فيه الأمَّة خصائصها بصورة متزايدة، ولا يُمكِنُها أن تكون وليدة لحظة تاريخيَّةٍ من المناكفة السِّياسيَّة.

بطريقة أو بأخرى، يمكننا القول بأنَّ الهويّة فعل تراكُمٍ بطيء، وليست ردُّ فعلِ تنافُرٍ سريع.

لإجراء المزيد من التَّعمُّق في مسألة الهويَّة العربيَّة لسورية، لا بُدَّ لنا من إلقاء الضَّوء على مجموعةٍ من المعطيات والتوثيقات والاجتهادات ذات الوزن المعرفي والفكري الَّتي تحمل الكثير من الدلالات المعبِّرة والمفيدة في الدِّراسة.

إطلالات تاريخيَّة

- عند أول تأسيس للدَّولة السُّوريَّة مطلع عشرينات القرن العشرين إثر تفكُّك الدَّولة العثمانيَّة وانتهاء احتلالها لسورية، كانت أوَّل تسمية لها وفق الدُّستور «المملكة السُّوريَّة العربيَّة» وهذا يُعَبِّرُ عن الإجماع السُّكاني من جهة، وعن طبيعة الحالة الثقافيَّة الوجدانية للهويَّة من جهة أخرى ضمن سياق طبيعي لتاريخ الإقليم.

- يقول الباحث الدكتور إبراهيم علوش في مقاله (هل القومية فكرة أوروبية مستوردة؟) المنشور في طلقة تنوير 88 تموز 2023 ما يلي:

«لكـنَّ الواقـع، لمـن يقـرأ تراثنـا الثَّقافـي العربـي-الإسـلامي جيِّـداً، هـو أنَّ المفكريـن والكتّـاب العـرب بلـوروا منـذ العصـر العباسـي علـى الأقل، نزعـة عروبيَّـة قوميَّـةً واضحـة»

ثُمَّ يستَطردُ موردِاً لبعض الأمثلة للدلالة والتَّوثيق:

«فالنَّزعـة القوميَّـة العربيَّـة لـدى الجاحـظِ أو المتنبّـي أو أبـي تمـام مثـلاً، تحتمِـلُ أطروحـات دراسـات عليـا كاملـة، وكذلـك مـا أورده ابـن خلـدون والفارابـي والمسـعودي وغيرهـم عـن الأمَّـة والعروبـة»

طبعـا هنـا مـن نافـل القـول التذكيـر بـأنَّ معظـم هـؤلاء الرمـوز ولـدوا وعاشـوا فـي سـورية والعـراق (اليـوم) فالمتنبـي كان قـد ولـد فـي الكوفـة وقضـى معظـم أيامـه فـي حلـب وأنحـاء سـورية، وأبـو تمـام مـن مواليـد جاسـم فـي حـوران، والجاحـظ ولـد وعـاش فـي البصـرة. أمـا الفارابـي الـذي يعـود لأصـول كازاخيَّـة، فقـد عـاش وعمـل كلَّ حياتـه فـي بغـداد ودمشـق وحلـب، وقـد اختـار دمشـق مقـراً نهائيّـاً لـه، وكان أن توفـي ودُفِـنَ فيهـا، كمـا أنَّ المسـعودي أيضـاً ولـد فـي العـراق وعـاش بينهـا وبيـن سـورية ومصـر حتـى وفاتـه فـي القاهـرة.

- يقـول الباحـث حسـن الحسـيني فـي إحـدى دراسـاته المتعمِّقـة عـن الهويَّـة بعنـوان «أصـول الكنعانييـن العربيّـة»:

«إنَّ التّاريـخ السّياسـي الصَّريـح يُبـرِزُ بجـلاء أنَّ أول الممالـك العربيَّـة قـام شـمالاً فـي باديـة الشَّـام والجزيـرة الفراتيَّـة وامتدادهـا، بمـا يشـمل صحـراء النَّقـب وسـيناء وشـمالي المملكـة السُّـعودية المعاصـرة»

- هذا الكلام يطابق ما يخبرنا به الباحث والمفكِّر فراس سواح إذ يقول:

«نشـأت ممالـك عربيَّـة فـي الشّـام والعـراق خـلال الألـف الأول قبـل الميـلاد منهـا مملكـة

الأنباط، ومملكة خالكيس في البقاع الشَّمالي، ومملكة الحضر غير بعيد عن الموصل، ومملكة ميسان على الخليج العربي، ومملكة حمص، وأخيراً مملكتا الغساسنة والمناذرة».

- الأستاذ سَواح يقول أيضاً في معرض توكيده على الوجود العربي القديم والحضاري في بلاد الشام:

«عندما دخلت الجيوش الإسلامية إلى المنطقة (بلاد الشام) كانت المنطقة تعج بالعرب، وجُلُّهم كانوا مسيحيين»

- ويورِدُ سواح توثيقاً على الوجود العربي السِّياسي في سورية الطَّبيعيَّة العائد إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد على أقل تقدير، مستشهداً بالنَّص الآشوري للملك (شلمنصر الثّالث) الَّذي يؤرِّخ لذلك الوجود بالحديث عن «ملك عربي يدعى (جنديبو) شارك في معركة قرقرة، حيث قاتل العرب دفاعاً عن دمشق في وجه الغزو الآشوري». فالعرب كانوا هنا، لا بل وكانوا مدافعين أيضاً. (فراس سواح، برنامج مختلف عليه 2020.10.5)

المسألة من وجهة نظر «سورية قومية اجتماعية»

كثيرا ما استخدمت «أفكار» أو اسم الفيلسوف العربي السوري (أنطون سعادة) خلال سنوات عشرية الدم والخراب في الإقليم، وخاصة في الجمهوريَّة العربيَّة السوريَّة، للإساءة للهويَّة العربيَّة وللانتماء العربي، وهذا الاستخدام انطوى دائماً على التَّحريف أو الاجتزاء والتَّلفيق، ولذلك وبرغم ما يبدو من غرابة هنا، أجد أنَّه من المفيد إلقاء الضَّوء على موقف الحزب السّوري القومي الاجتماعي من قضيَّة العروبة، وعلى حقيقة رأي وتوجُّه مؤسس الحزب وكاتب دستوره من كلِّ ذلك. تماماً كما تكمن أهميَّة المرور على مسألة «الهويات المحليَّة» (السريانية أو الآرامية..إلخ) التي أيضاً اتَّخذت لها حيِّزاً مهمَّاً من الاستخدام ضمن نفس السِّياقات الاستغلاليَّة لهدم الهويَّة الجامعة.

- تقول الدكتورة (صفيَّة أنطون سعادة) في مقالتها «غياب مقومات الدولة الحديثة في العالم العربي» المنشورة في جريدة الأخبار (2019.1.21):

«إذا أردنا أن نطبِّق مبدأ المتَّحد القومي على نشوء الحضارة العربيَّة، وجدنا أنَّها برزت وترعرعت في حاضرتين سوراقيتين: دمشق وبغداد، ما يُحَتِّم دراسة تاريخ المنطقة، ليس بدءاً بالأمويين، بل بدءاً بتاريخ هذه الأرض ما قبل الأمويين والعباسيين، لأنَّ الحضارة العربيَّة تطوَّرت في هاتين العاصمتين من جراء التَّفاعل بين مكوناتها، بشكل أخذت فيه هذه الحضارة الكثير من الحضارات التي سبقتها»

إنَّ هذا لا يشرح لنا فقط تلك الرؤية الهادئة لمسألة نشأة العروبة في سورية والعراق، ولكنَّهُ أيضاً يؤكِّدُ على مبدأ كتبتُهُ عدَّة مرات وقدَّمتُهُ في محاضراتي عن الهويَّة، وهو تلك العلاقة التماوجية المتصالحة بين الحضارات المتعاقبة، والذي يعني ويؤكِّد أنَّ الحضارة العربيَّة هي نتاج موضوعي للحضارات التي سبقتها، وخاصَّةً في إقليم المشرق العربي، لذلك صارت تلك الحضارات تسمّى بالحضارات «العربيَّة القديمة».

- إنَّه من أفضل الإيضاحات التي صدرت عن هذه المُعطيات التاريخيَّة، كلام سيادة المطران المختطف يوحنا إبراهيم (مطران حلب للسريان الأرثوذكس) في معرض تقديمه لكتاب «شمس آرام شمس العرب» للباحث السرياني عبد الهادي نصري، والذي يبحث في حقيقة الانتماء العربي للآراميين والسريان، يقول المطران:

«ويسعدُنا اليوم أن نقدِّمَ بالاشتراك مع اللجنة السِّريانيَّة المشتركة، لطالبي العلم والمعرفة هذا الكتاب النَّفيس عن تاريخ الشَّعب الآرامي السُّوري العربي، ودوره في البناء القومي والحضاري»

في الكتاب نفسه يقول الكاتب نصري:

«بُذلَت محاولات عدَّة لخلق التَّفرقة بين العرب والسّريان، وقد حاول البعض إيهام السّريان بأنَّهُم يُشَكِّلون قوميَّة خاصَّة بهم بعيداً عن القوميَّة العربيَّة.. كما حاولوا إطلاق تسميات عديدة مثل الاسم الآشوري (ASSYRIAN) وهو أمرٌ اخترعهُ الإنكليز بداية القرن العشرين.. لغاية سياسيَّةٍ خبيثةٍ» (نصري، الصادر عن المطران يوحنا إبراهيم، حلب 1986)

- يُخيَّل لبعض النّاس أن اجتهاد المُفكِّر السُّوري الكبير (أنطون سعادة) في توصيف الهويَّة السُّوريَّة هو اجتهادٌ مناقِضٌ للهويَّة العربيَّة، بينما في الواقع جاءت نظريَّة سعادة ضمن إطار الانتماء العربي العام والشَّامل، وسأوثِّق ذلك من خلال نتاج الرَّجُل:

1- المادة الأولى من دستور الحزب تقول:

«غاية الحزب السّوري القومي بعث نهضة سوريَّة قوميَّة تعيد إلى الأمَّة السّوريَّة حيويَّتها وقوّتها، وتنظيم حركة تؤدي إلى استقلال الأمَّة السّوريَّة استقلالاً تاماً، وتثبيت سيادتها وتأمين مصالحها، ورفع مستوى حياتها، والسَّعي لإنشاء جبهة عربيَّة»

إنَّ هذه الدعوة لتشكيل «جبهة عربيَّة» ليست سوى تأكيد على الانتماء العربي لسورية، فالانتساب إلى العروبة واضح في النَّص، لا بل والدَّعوة إليه أيضاً، وهنا أريد أن أؤكِّدَ

على أنَّه ليس ثمَّةَ عروبيٌ واحدٌ يختلف مع سعادة في رؤيته لتميُّز الشَّخصيَّة العربيَّة السّوريَّة، وإنَّ ما اعتاد العرب تسميته «بلاد الشَّام» ليس إلا توكيداً على ذلك، وهذا أمر تاريخي وعلمي فلكل إقليم في العالم العربي شخصيَّة تاريخيّة واضحة ولها أطرها المتمايزة، وهذا بفعل عوامل موضوعية للتاريخ والجغرافيا تحديداً، تماماً كما يمكن رصد شخصيات وجدانيّة وثقافية متنوعة بين مناطق البلد الواحد تبعاً للمؤثرات السّابقة، ففي السّاحل السوري هناك شخصيَّة وفي البادية أخرى وفي الجزيرة أيضاً، وحوران.. إلخ

2- في محاضرته العاشرة في الندوة الثقافية (الأحد في 4 أبريل/ نيسان 1948) يورد سعادة عدداً من الأفكار في القضيَّة العربيَّة، ويشرح بوضوح موقف ودور الأمة السُّوريَّة تجاهها..

«إنّ إيجاد جبهة من أمم العالم العربي تكون سدّاً ضد المطامع الأجنبيَّة الاستعماريَّة، وقوة يكون لها وزن كبير في إقرار المسائل السِّياسيَّة الكبرى»

«إنَّ سورية هي إحدى أمم العالم العربي، وإنها هي الأمَّة المؤهلة لقيادة العالم العربي، وما النَّهضة السُّوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة إلا البرهان القاطع على هذه الأهليَّة»

هكذا يُقِرُّ المؤسِّس بانتماء سورية العربي بشكلٍ ثريٍّ وواضح، ثمَّ يتابع ليطرح السُّؤال:

«لماذا هذه النهضة برهان واضح قاطع على أهلية سورية لقيادة العالم العربي؟»

ليتبيَّنَ لنا أنَّهُ يسعى لتبيان قيمة سورية في عالمها العربي كقائدة له، لأنَّها تمتلك المؤهلات التاريخية في شخصيَّتِها الحضاريَّة بما يحقق مصلحة العالم العربي كهدف سامٍ وأعلى للفكر القومي الاجتماعي، ثم يتحدَّث بفخر عن تقدير العرب لهذا فيقول:

«في كلِّ أمَّة، في كل قطر من أقطار العالم العربي يسمع المحدث أو المباحث اعترافاً واضحاً صريحاً من كل من اطلع على هذه النَّهضة في هذه البلاد أنَّها أحسن ما وجد في العالم العربي»

«ثم من حيث التَّنظيم الفكري والسِّياسي والعملي في مصر سمعت أشخاصاً يعملون في الجامعة العربيَّة أنهم يحتاجون إلى تنظيمنا وإلى خططنا التصميمة، ويريدون منَّا أن نعمل بدلاً من غاية نهضة سوريَّة لوحدة عربيَّة»

ثم يستشهدُ مفتَخِراً بما طُلِبَ منه من دور يُمكِنُ للفكر والمنهج القومي أن يلعبه ضمن مؤسسات الجامعة العربيَّة:

«فإذا عملنا واتجهنا هذا الاتجاه ـ فإنهم يريدون كثيراً أن نشترك وأن يضعوا في أيدينا تنظيم أعمال كثيرة في الجامعة العربيَّة والعالم العربي»

«أقول هذا بشيء من الاعتداد لأنَّ التعبير كان (تنظيم كل شيء في داخل الجامعة العربيَّة وخارجها)»

إنَّها كمية كبيرة من فخر الانتماء العربي، والحماسة للعب دور عربي عام من قبل «الأمَّة السُّوريَّة» الَّتي آمن سعادة بعمق بكيانها وشخصيتها ليسَ للانكفاء، ولكن للقيام بمهمتها العربيَّة «الكبرى» كما يرى، حيث يتابع في محاضرته العاشرة:

«إنّ الذين يعتقدون أنّ الحزب السُّوري القومي الاجتماعي يقول بتخلي سورية عن القضية العربيَّة، لأنَّهم لا يفهمون الفرق بين النَّهضة السُّوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة والقضيَّة العربيَّة، ضلّوا ضلالاً بعيداً»

«إننا لن نتنازل عن مركزنا في العالم العربي ولا عن رسالتنا إلى العالم العربي... يجب على سورية أن تكون قوية بنهضتها القومية الاجتماعية لتستطيع القيام بمهمتها الكبرى»

قراءات علميَّة سياسيَّة

- إنَّ مجتمع علوم التّاريخ اليوم استبدل تسمية الحضارات واللغات التي كانت تُسَمَّى «ساميَّة» بتسمية «العربية القديمة» .. هذا هو المصطلح العلمي الجديد، الذي استبدل به العلماء مصطلح «سامي» لأسباب علمية بحتيَّة، فالعروبة كلغة وكحضارة تبدو بالنِّسبة للعلماء ليست فقط كوريث موضوعي لكل تلك الحضارات يحتويها كلها، ولكنَّها أيضاً شكَّلت أهم محاور تطور اللغة الجامعة الحيَّة التي يتقنها سكان العالم العربي جميعاً، في حين تراجعت واضمحلت بقيَّة اللغات وذابت فيها حتى لا أقول بأنها «لم تعد لغاتٍ حيَّة»، فالعروبة لم تكن وريثاً فقط ولكن المساهم الأكبر والجامع لكل ذلك.

- في العلوم السّياسيَّة والاجتماعيَّة، وعوداً على كلام د. صفية سعادة، أستطرد فأقول إنَّ العروبة هي المنتج الحضاري الذي نسجه سكان بلاد الشام من تراكم الحضارات في أرضهم، وغزوا به العالم عسكرياً وثقافياً، في زمن كانوا هم السَّادة فيه. وهذه حلقة طبيعية في تاريخ البشريَّة، سبقتها الرومانيَّة والإغريقيَّة مثلاً، ولحقتها الغربيَّة اليوم، مع الفارق الكبير في الأساليب والتَّوجّهات إنسانيّاً وأخلاقيّاً.

- في هذا السَّياق أريدُ لفت النَّظر إلى أنَّ الوزن النَّوعي الاستراتيجي لسورية ينبع من موقعها الجغرافي ومن انتمائها العربي، فهي بالنِّسبة لتركيا أو لإيران مثلاً، وحتى

لروسيا، مُقدِّمَة العالم العربي والمُمَثِّل الأول لطموحات ومشاعر سكانه. كما أنَّها حازت على مشاعر وتأييد ملايين العرب من موريتانيا إلى الكويت وبرغم حملات التضليل بحقها، من دون أن تصرف قرشاً واحداً في سبيل ذلك، فالدُّول تبذل الغالي والرَّخيص للحصول على هذا النوع من العمق الاستراتيجي، فيما تملكه سورية فقط لأنَّها حامِلة الوجدان العربي.

مواقف ذات دلالة:

يقول (شمعون بيريز) في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» 1993: «لن نستطيع الدخول إلى جسد المنطقة، إلا إذا نجحنا بتدمير الثَّقافة التي تقوم على أنَّ العرب أمَّة واحدة»

استطراداً على ذلك في 2020.1.20 قال (بينيامين نتنياهو) أثناء حفل لجهاز الأمن العام في الكيان «إنَّ هدفنا الكبير هو التَّغلُّب على الخطر الإيراني، بعد أن تغلبنا على التَّهديد الكبير الذي تَمَثَّلَ بالقوميَّة العربيَّة»

يقول العميد المتقاعد في جيش الكيان (موشي فرجي) في كتابه «إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان» (الصادر في 2003) ما يلي: «إنَّ الاستراتيجيَّة الإسرائيليَّة إزاء المنطقة العربيَّة انطلقت من رفض انتماء الشُّعوب العربيَّة إلى وحدة ثقافيَّة وحضاريَّة واحدة»

خلاصة:

إنَّ الحضارة العربيَّة هي الوعاء الذي يحتوي تلك الهويَّة العربيَّة الجامعة، التي جاءت كنتاج لتفاعل وتراكم ما قبلها وما عايشها من الحضارات والدُّول التي ساهمت في صياغة هويَّة المنطقة ولغتها أيضاً، وخاصّة انطلاقاً من بلاد الشَّام، فالحضارة العربيَّة هي من هذا التُّراث والتّاريخ وهي امتدادٌ له، وليست خصمَهُ كما يُحاوِلُ بعض الموتورين تصويرها، لأسباب تتعلَّق إما بعدم المعرفة، أو بتنفيذ الأجندات المعادية.

كما أنَّ الهويَّة العربيَّة لسورية ليست فقط استجابة لذلك «المجتمع المستعاد من الذاكرة» كما يقول هنتغتون، ولكنَّها مصلحة استراتيجية لها، وكما يقول المفكر عطيّة مسوح:

«ليس هناك حقيقة لسورية، بمعزلٍ عن عروبتها»

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

التطبيع من ثقب إبرة في رواية «ناغوغي الصغير»

طالب جميل

عن وزارة الثقافة الفلسطينية التابعة للسلطة الفلسطينية التي قامت نتيجةً لاتفاقية أوسلو الموقعة مع الكيان الصهيوني، صدرت في العام 2021 رواية للكاتب الفلسطيني «حسن حميد» تحمل اسم «ناغوغي الصغير» مهداة إلى القدس. وتقع هذه الرواية في 246 صفحة موزعة على ثلاثين فصلاً، وعناوين الفصول (عتبة..لا بد منها، هنا..في إسرائيل، المجيء، ناغوغي الصغير، في وداع..أمي، نهاراً.. مع ريفا، النذر، بابندا، الانتساب إلى الجيش، في الكوخ، الاعتذار، نجمة حياتي، داخل السجن، حين غدوت سجّاناً، غيبة..ريفا، السجن..مرة أخرى، ماننغا الجميلة، الجندي..ناغوغي، ملاومة، في الغياب، في القدس، عشرة أيام..مع دونا، الفرار، القرار، سهرة.. مع العجوز سابينا، في محيط الكنيسة، بصحبة أبو سمرة، في الناصرة، نورا.. مرة أخرى، الذي..كان).

يبدو القارئ للوهلة الأولى أمام رواية إنسانية محملة بكم كبير من العواطف تسرد حكاية ناغوغي الصغير المهاجر اليهودي القادم من إثيوبيا إلى الجنة «إسرائيل» ملبياً لنداء العودة التاريخية الموعودة، والأحداث والمواقف التي رافقت مجيئه إلى أن انتهت حكايته هناك.

وناغوغي الصغير ليس ابن ناغوغي الكبير بل هو ابن خطيئة «لقيط»، تم أخذه من المدرسة وهو في عمر الثامنة إلى بلاد بعيدة، إلى مكان يتعلمون فيه قصص الدين واللغة العبرية وكراهية العرب حيث عاش في كيبوتس «منيتشان» في الناصرة وقتاً طويلاً ثم سافر إلى «ماميناً» في إثيوبيا، وعاد بعدها إلى أرض الكيان المزعومة بعد وفاة أمه. وتأخذ علاقة ناغوغي بأمه ووفاتها مساراً درامياً عاطفياً فيه الكثير من الحزن فقد تأثر جداً لغيابها بعد أن دفنها بصمت قرب نهر «بادوغا»، وفقد النطق نتيجة هذه الحادثة مما تسبب في طرده من المدرسة قبل أن يعود له لاحقاً.

قرر بعدها أن يذهب مجدداً إلى الأرض الموعودة، وبسبب لونه الأسود تعرض لمعاملة قاسية وكان يشعر أنه بلا قيمة. فقد عمل في حفر الخنادق وشاهد أسوأ أنواع الترهيب واللاإنسانية، دخل السجن وعومل بحقارة شديدة، وبعد أن خرج عاش متشرداً إلى أن تعرّف إلى رجل زنجي ساعده بالحصول على عمل في تنظيف الفضلات والمجاري في شوارع مدينة الناصرة، وخلال عمله هذا تعرفت عليه فتاة جميلة تدعى «ريفا» ضمن سياق ساذج لا يحدث إلا في الأفلام السطحية التي لا تحترم عقول الناس، لتصبح ريفا «حجر الفلسفة الذي قلب حياته»، والسبب الذي حوّل ناغوغي الى «كائن من روح ودم وأسئلة وأشواق وأحلام بعدما كان يعد نفسه رذاذاً من فضلات الناس والبهائم». و»ريفا» يهودية من أصل بولندي ومجندة في جهاز الموساد تساهم في عمليات القتل والاغتيال التي ينفذها الجهاز. كان والدها مهندساً عسكرياً من مهندسي الطيران في الجيش، يشرف على صيانة الطائرات وتجهيزها وإعدادها للانطلاق، كما كان مدرباً للطيارين الجدد إلى أن قُتل في ظروف غامضة. تساعده ريفا لاحقاً في الانتساب إلى جيش «الدفاع الإسرائيلي» فيتعلم القتل على أسس دينية وفق ما تقوله التوراة وما يشرحه التلمود فيحترف قتل العرب ويتلذذ في تعذيبهم!!

أثناء خدمته العسكرية يتم سجنه بتهمة التمرد ويتعرض للتعذيب بأشكال متعددة لأنه قال لهم: «إن التوراة لا تعطيكم الحق بأن تعاملوني باحتقار ومهانة فأنا يهودي مثلكم وأعرف التوراة أكثر منكم وأعرف التلمود أكثر منكم»، فكانوا ينعتونه بأنه «إفريقي ووحش وزنجي وجاسوس ووحيد القرن وتمساح»، ولم يتم معاملته على أساس أنه مواطن، وبعد عمله سجاناً في الجيش استقال ناغوغي من إدارة السجون بعد تأثره الشديد ونوبة الضمير التي اجتاحته نتيجة قيامه بتعذيب فدائي سوداني اسمه «مصطفى عباس».

بعد هذه الأحداث يبدأ التحول في شخصية ناغوغي حيث يصبح إنساناً مسالماً، فيذهب في

رحلة إلى القدس ليتعرف عليها، يتجول في أحيائها ويلتقي ببعض الناس من أهلها من مسيحيين ومسلمين، ثم يتعرف إلى الشاب الفلسطيني «أبو سمرة» الذي يدعوه لزيارة بيته، فيما يهديه شابٌ آخر من مخيم شعفاط ديوان شعر للشاعر الفلسطيني حنا أبو حنا، وتتشكل قصة حب بينه وبين فتاة فلسطينية تدعى «نورا» التي «قبّلت إصبعيه المقطوعتين ومرّغت وجهها ببشرته السوداء وبكت على صدره وتنهدت حين أخبرها بقرار عودته إلى إثيوبيا لأن الحياة في دولة الكيان لا تطاق والظلم يغطي كل شيء».

إن ملخص الرواية ومسار أحداثها يوحي بأن القارئ يبدو أمام نص مخصص للحديث بالدرجة الأولى عن معاناة اليهود الفلاشا واحتقار اليهود الآخرين لهم داخل الكيان الصهيوني التي يعلم كل إنسان عاقل في هذا العالم كيف قامت هذه «الدولة» المزعومة. وإذا كانت هذه الفئة من اليهود تتعرض للظلم أو العنصرية هناك فهذا شأن يخص المجتمع الصهيوني، علماً أن أي مهاجر يهودي يطأ أرض فلسطين التاريخية هو صهيوني محتل بالضرورة ولا يمكن التعاطف معه بأي شكل من الأشكال. أما محاولة التركيز على الجانب الإنساني لهذا اليهودي والتعاطف مع معاناته هو نوع السم التطبيعي الذي يدس في النصوص والأعمال الأدبية واختراق واضح للفطرة العربية التي تقوم على رفض الوجود اليهودي في أرض فلسطين وعدم قبول التعاطي مع قضايا أو مطالب تخصهم، فالتواجد اليهودي عبارة عن احتلال ولا يمكن النظر لأي يهودي محتل من زاوية إنسانية.

تبدو الرواية للوهلة الأولى رواية إنسانية واجتماعية لكنها فعلياً رواية سياسية تحمل مضموناً سياسياً خطيراً ومؤثراً، وعلى الرغم من أنها تتضمن بعض الأحداث المتناقضة التي يصعب تفسيرها، إلا أن هذا الأمر يعتبر غير مهم مقارنة مع حقل الألغام المدسوس بداخلها، حتى أنه لا يمكن اعتبار القضية الأساسية التي تناولتها الرواية حق يراد به باطل بل باطل يراد به باطل لأنه لا حق لليهود أصلاً باحتلال أرضنا وتشريد شعبنا وبناء دولة لهم فيها، أما إذا كانت الرسالة من الرواية هي إصلاح الكيان الصهيوني من الداخل ليصبح أقل عنصرية فهذا يعني أن الكاتب مؤمن بحق الكيان الصهيوني بالوجود ويريد لهذا الكيان أن يكون عادلاً ومثالياً ومنصفاً في الحقوق والواجبات بين جميع مواطنيه، وبالتالي فإن الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيطان فيها وإقامة دولة أصبح أمراً مقبولاً لديه، وبات الأهم أن تظهر هذا الدولة ومجتمعها الفسيفسائي بصورة نموذجية أمام العالم.

ومن الملاحظات المهمة في هذه الرواية هي إظهار بعض شخصيات فلسطينية متعاطفة مع هذا الجندي اليهودي المحتل والقاتل كنوع من الدعاية الرخيصة وغير الواقعية التي تصور الفلسطيني بأنه متسامح مع مغتصب أرضه وقاتل أبناء شعبه، وهذا الأمر في الواقع لا يقبله إلا

من هو خائن وعميل، أما الفتاة الفلسطينية «نورا» التي شغفها حب ناغوغي فتبدو هذه القصة كمشهد من مشاهد أحد الأفلام العربية التي تصور داخل الأراضي المحتلة بتمويل من بعض الجهات المروجة للتطبيع الهدف منه لفت نظر العالم واستجداء نظرة تعاطف مع الفلسطيني المتسامح الذي يؤمن بالتعايش وحق اليهودي المهاجر في العيش معه على أرضه.

في الواقع إن هذه الرواية من الروايات الأشد خطورة التي ظهرت في العقود الأخيرة فهي لا تروج للسلام والتطبيع مع العدو الصهيوني بشكل مباشر، لكنها تحمل في باطنها كثيراً من المضامين الخبيثة التي تدعو للتعاطف والتسامح مع فئة من اليهود المهاجرين إلى فلسطين وغض النظر عن وجودهم كمحتلين ومغتصبين، بل اعتبارهم ضحية لعنصرية دولة الاحتلال وممارساتها ضدهم. ويدل هذا النص على أننا امام نوع جديد من المطبّعين الذين لا يروجون له بشكل مباشر، ولا يتبنون خطابه ولا يسوقونه بوضوح، لكنهم ينسجون حكاية إنسانية أو اجتماعية وبناء عليها يتم تسريب وضخ فكرة التطبيع أو تمريرها من أضيق زاوية ممكنة، وهذا ما يمكن تسميته بالتطبيع من ثقب إبرة.

إن الأدباء والمفكرين والمثقفين العرب، وبعد ما آلت إليه حال الأمة العربية أصبحت مسؤولياتهم أكبر في الدفاع عن قضايا الأمة عامة والقضية المركزية الأولى خاصة، من خلال التحريض والحث على المقاومة وكشف وفضح الكيان الصهيوني في كافة المحافل وعبر أعمالهم وكتاباتهم، وتوجيه الرأي العام وتعبئته ضد كل محتل لأرضنا العربية، أما الترويج للتطبيع والكتابة لأجل الحصول على هبات وجوائز ممولة من بعض الجهات أو الدول الداعمة للكيان الصهيوني فهو أمر لا يليق بكاتب عربي له مبدأ وموقف أخلاقي وعروبي جذري من كافة القضايا العربية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 91 ـــدد
01 كانون الثاني 2024

قصيدة العدد: في أذان العصر / يوسف الخطيب

في أَذَانِ العَصْرِ ..
كانت تنحني مَرْكَبَةُ الشَّمس إلى الوادي،
ويلتاعُ صَهِيلاً فَرَسُ الموتِ المُطَهَّمْ ...
أعطني ناراً.. وقيثاراً..
سأهدي الصَّمَتَ سِكِّينَ أغانيَّ
وألقي شعراء التاج في قعرِ جَهَنَّمُ..!!
أعطني ناراً.. وقيثاراً..
أغنى الليل غرناطية الأشجان..
وَلْيَذْهَبْ بهمْ عَرَّابُ مَدريد إلى قعْرِ جَهَنَّمُ ..!!
في أذانِ العَصْرِ ...
كان الموتُ سَكرانَ ثمالاتِ الشَّرايين

وَيُورِي زُرْقَ أَنْيابِ الشياطينِ، ويَنْهَمْ..

إنني أُشْهِدُكَ، اللهم
أنَّ الموتَ سَرَّاقٌ يهودي
ويَسْقِي مِنْ دَمِ الأَطْفَالِ
مَعْجُونَةً «فُوريمَ» على كَوْنٍ مُهَدَّمْ..
في أذانِ العَصْرِ ...
كانت وردَةٌ قَدْ سَفَحَتْ أَشدَاءَها الريحُ ...
وكانَ الغَيْمُ حِنَّاء على الأُفْقِ، وَعَنْدَم ...
عِنْدَمَا جِيءَ بِهِ مِنْ ضِفَّةِ النَّهْرِ
على أذرع أتراب
وشقَّتْ حُفَرَةٌ، في الخرج، شرقي المخيم...
في أَذانِ العَصْرِ ...
دَلَّ رَأْسَهُ فِي أَبَدِ الصَمْتِ
سوى ما حَجَرٍ فِي قَبْضِ يُمْناهُ...
يقولون.. تَهَجَّى لَفْظَ «أُمِّي»، وتَكَلَّمْ..
فخُذي أَعْوامَهُ التِسعَةَ في حِجْرِكِ...
رفقاً ..
أرضعيه لبن الروح، إلى الري،
هنا آخِرُ ما عُصفورُ أَحشائِكِ يُفْطَمْ..
في أَذَانِ العَصْرِ...
كان الريحُ زَمَّارَ تَبَارِيحَ
يُغَنِّي، في زُرُوعِ السَفْحِ
تَغْرِيبَةَ أَعْشَاشِ العَصافِيرِ
عَلَى أَضْلاعِ قِيثَارٍ مُحَطَّمْ...
عِندَما حَفَّ بِهِ غَسَّالَةُ الْمَوْتَى
على تَشْرِيحةٍ مِنْ خَشَبِ البَلُّوطِ

سَجَّتْ غَيْمَتَا رَنْدِ.. و كافور ...
سخاءَ الله.. حَتى يَتَحمَّمْ...
في أَذانِ العَصْرِ ...
كانَ الحزنُ صُعلوكاً على قارِعَةِ الدَرْبِ
أتى يَسْأَلْنا زَاداً...
فَبِتْ لَيْلَكَ فينا، طارق الليلِ الْمُلَثَّمْ...
هَذِهِ الخَمْرُ التِي تَشْرَبُ كَنْعَانُ
عَتِيقُ الجُرْحِ من عيسى...
وقطرُ الدَمْعِ مِنْ مُقْلَةِ مَرِيمْ ..
في أَذانِ العَصْرِ ...
كانت طِفْلَةٌ تَرْكُضُ خَلْفَ النَّعْشِ
لما لاذَ دُورِيٌّ إلى نَافِذَةِ الكُوخ، وحوَّم..
ما تُغَنِّي تِلكُمُ الجوقة
في أعلى أراجيح السماواتِ..
وما الورد الذي يضفرُ رضوان،
وحتى الجن، والأفلاك.. ماذا تَتَرَنَّمْ ؟..!
في أذانِ العَصْرِ...
ما سُدَّ بَابُ القَبْرِ .
صَلَّى، في نَسيم القِبْلَةِ، السَّرْو عليه ..
وعَبِيرُ الزَعترِ البَرِي.. سَلَّمْ...
فَأَدِرْ ، يا أَيُّها الساقي، علينا الكَأْسَ ..
لا بأس...
أَظُنُّ
اللَّهَ لما أَبدَعَ الإنسَانَ
خَلْقاً .. طَيَّ خَلْقٍ...
كانَ مِنْ فَرْطِ خَيالٍ، وجَمَالٍ، يَتألمْ..!!
كانَ مِنْ فَرْطِ خَيالٍ، وَجَمالٍ ، يَتَأَلَّمْ..!!

في أذان العصر

مرثية طفل فلسطيني في التاسعة

سقط شهيداً في انتفاضة عام 1987

من مؤلفات عام 1991 بدمشق...

لا أتذكر أنني ذرفت قطرة دمع، بسخونة الجمر، وبحرقة الحنظل، كتلك التي ذرفتها ، فيما يقرب من أذان العصر من ذلك المساء، إذ أنا، آنذاك قبالة الشاشة الصغيرة، أشاهد أحد أطفال «انتفاضة الحجارة»، وهو مُسَجًّى في زيه الملائكي الأبيض من أجل الدخول عبر الباب الضيق، لملاقاة وجه الله وسع السماوات والأرض !!..

كذلك، لا أظن أبداً أن دمعتي تلك انحدرت يومها من مصدر الضعف، أو حتى مجرد الحزن في ذاته بقدر ما أحسست معها بتلك النوبة الطاغية من الغضب، و «الكراهية».. وبنفس حجم «الحب» الحميم الذي يسكنني لكل أطفال الدنيا، وفي مقدمتهم أطفال فلسطين.. وإنما أعني هنا الغضب، و«الكراهية»، بمفهومها الإنساني النبيل والرفيع..

أولاً: إزاء جميع أولئك المسؤولين الذين يتشدقون عادةً بنخوة المعتصم، فيما هم معتصمون داخل القصر، حتى حافّة القبر !!.. وثانياً : إزاء «حضارة الحقارة» هذه في عصرها الأميركي المتلذذ دَوْماً بخوض الحروب، وامتصاص دماء الشعوب !!..

وبالمعذرة.. أو بدونها.. من عزيزي ديكارت...

أنا أحب، وأكره.. إذن.. أنا إنسان !»

يوسف الخطيب.

رسم العدد: البأس اليمني

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي